نسرين النقوزي

رواية

المنكوح

AVERROES
ابن رشد

المنكوح

رواية

لسرين اللقوزي

لوحة الغلاف: للفنان التشكيلي العراقي سيروان باران عارف

الطبعة الأولى: القاهرة 2021

رقم الإيداع: 15652 / 2021

الترقيم الدولي: 978-977-6811-15-7

عمليات الإخراج الداخلي وتنفيذ عمليات الطباعة

بوحدات شركة Averroes للنشر والتوزيع

ابن رشد
وكلاء وناشرون

المدير العام: بيسان عدوان

المدير التنفيذي: حسن جمال

info@ibnroshed.com

+2 01016381923 / +2 01000377889

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر. ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Ibn Roshd Egypt ©

جميع المواد الواردة والأفكار تخص كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن أفكار أو توجهات الناشر

المنكوح

نسرين النقوزي

رواية

القاهرة 2021

إلى..

مجيد الّذي كتب الرواية دون أن يدري.

كنتُ فقط صوته المبحوح،

ويده اليمنى الّتي شُلت من استمناء اليأس.

لا تخف صديقي؛ فلن أكون وهماً يضاف إلى خيباتك.

أنتَ البطل..

و أنا امتداد لكل منكوحي العالم.

الفصل الأول

(1)

أمست الساعة الثامنة إلّا عشر دقائق، سيسجّل دخوله بعد عشر دقائق تمامًا كما يفعل كلّ يوم منذ ستّة أشهر، منذ أن تعرّفتُ عليه. أتخيّله يدخل غرفته القذرة حيث يعيش مع سبع قططٍ وكلب كما صوّرها لي مرارًا. يخلع حذاءه ويتمدّد على سريره الخشبيّ وفرشته الملوّنة والممزّقة من كلّ الجوانب.

لم أسأله إن كانت هذه آثار أعقاب السجائر والزطلة[1] الّتي لا يتوقف عن تدخينها أو ربّما الفئران الّتي أخبرني يومًا أنّها تملأ المكان ولكنّها لا تزعجه بل على العكس تؤنسه في وحدته.

أتذكّر الآن كيف كان يشتم قططه السبع الكسالى اللواتي لا يركضن وراء الفئران بل يتمدّدن بكسلٍ كلّ النهار والليل على عتبة الغرفة.

كان يتوعّدها أن يوقف عنها الأكل. سمعته يصرخ بها وهو يكلّمني على الهاتف مرّةً ولكنّي لم أفهم شيئًا. كان يكلّمها عمدًا بالأمازيغية. يريد أن يشعرني بتفوّقه وأنّه بالرغم من كرهه العرب يتقن العربيّة والأمازيغيّة.

كنتُ أجاريه، لا أدري لِمَ، كلّ ما يقوله يضحكني، أحبّ شخصيّته، شكله الرجولي، سماره، لحيته المشعّثة، عيونه الصغيرة الرماديّة، وهندامه

---

1 - الزطلة: الحشيش بالجزائريّة.

المؤلّف دائمًا من جينزٍ أزرق وبلوزةٍ بيضاء أكمامها قصيرةٌ، أشمّ رائحة السجائر منها عن بعدٍ.

الساعة الثامنة تمامًا

يرسل لي مجيدٌ:

كيف حالك يا أفضل حسّان في العالم واااا حسّان هاهاها هكذا نحن الأمازيغ ننادي.

ندخل واااا قبل كل الأسماء لمناداتها..

واا حسّاان

أنا فرحٌ اليوم، عملتُ كلّ النهار مع أخي الّذي يكرهني هاهاها واشتريتُ لأمّي دجاجةً ولحمًا وتمرًا، كانت صائمةً اليوم، حملتُ صناديق المشمش وأكياس البطاطا في شاحنةٍ وذهبتُ معه إلى السوق، بعناها كلها. أعطاني ما يعادل 30 أورو. لو عملت هكذا كلّ يومٍ، لَمتُّ قبل بلوغ الأربعين.

ولكنّها ليست إلّا مرحلةً صعبةً وستمضي.

عندما أنتهي من دراسة الهندسة سأجد عملًا مهمًّا جدًّا وأصبحُ ثريًّا. عندها أشتري لأمّي قلبًا جديدًا بدل قلبها الضعيف. وسأشتري لأبي ساعةً ضوئيّةً تمكّنه من السفر عبر الزمن لتعيده إلى ١٩٨٥ ليلة زواجه بأمّي وأطلبُ منه أن تنفجر الساعة في يده اليمنى لتمنعه من عقد قرانه بها، عقدٍ أنجبني أنا. عقد معاناةٍ وبؤسٍ.

كما سأشتري لأختي كلبًا نظيفًا وفتيًّا يؤنسها وهي تساعد أمّي في العجن وحلب المعز وتنظيف الإسطبل حيث توجد غرفتي المستقلّة.

لديّ طاقةٌ جبّارةٌ على الحياة اليوم، ولو أنّ عمري الآن 33 والكلّ يعتبرني فاشلًا ويهزأ منّي لأنّي لا أنتمي إلى القطيع ولأنّ أبي راعٍ هاهاها هو راعٍ وأنا ابنه، ولكنّي لست خروفًا، أخي خروفٌ، لذا هو ناجحٌ.

أقسم أنّي سأناضل ولن أستسلم ما دمتُ حيًّا وصالحًا للحياة، لم أجنّ وهذا إنجازٌ يحتقره أبناء "مامي وبابي".

- نخبكَ يا حسّاانوو. خذ دخّن هذه الزطلة معي، نخب الحدث، نخب البطاطا، نخب الفقر. نفَسٌ أو نفسان وترى الفرق بين الواقع والخيال.

- أنا أشرب المتّة صديقي، تعرفني، لا أدخّن حتّى السجائر العاديّة.

كنت أعرف أنه لا يسمعني عندما أتكلم، بل لا يسمع نفسه. جمله دائمًا غير مترابطة، يقفز كلّ الوقت من موضوعٍ إلى آخر كأنّه يريد أن يتخلّص من هذه الحقائق فيرميها عليّ ويعيد تسميعها لي عشرات المرّات وكلّ مرّةٍ بحماسة المرّة الأولى.

أحيانًا أفكّر هل ستنفعني سيجارة الحشيش لأتحمّل ما أعيشه. الكثير من رفقائي المحاربين أدمنوا عليها منذ أن أجبروا على ترك حياتهم وعائلاتهم وأولادهم والانضمام إلى هذه الحرب اللعينة.

شاشة الهاتف عكست صورتي بثيابي العسكريّة الرثّة، ذات اللونين الزيتيّ والبنّيّ. قبّعتي الّتي تخفي تحتها شعرًا كثيفًا لم أحلقه منذ ثلاثة أشهر. عيناي فقدتا لونهما ولمعتهما، ليس لديّ ملامح.

علامات الانهزام اكتسحت كلّ تعرّجٍ في وجهي، وكأنّ المعارك الّتي عشتها كانت على أرض هذا الوجه القذر.

تهدّم كلّ بنائه وأصبح أملس. كأنّ العيون والمنخار والشفاه خجلت ممّا رأت وسمعت وشمّت خلال هذه المعارك.

أتخيّله بقعة دمٍ كبيرةً مع دائرتين سوداوين أحسبهما عيني وحشٍ.

- حسّان حسّان أين أنت؟

لماذا لا تردّ؟

هيّا يا فتى، أسمعني بعض شعرِك يا متنبّي

هل تقول لطلّابك أنّك شاعرٌ أو لعلّك تكتفي بتعليمهم الأبجديّة هاها

"قم للمعلّم وفّه التبجيلا / كاد المعلّم أن يكون رسولا..."

أتعرف ما فعل هذا الرسول يومًا؟

يأخذني سؤاله إلى والدي، كيف كان يجبرنا أنا وإخوتي على الاستيقاظ باكرًا كي نصلّي الفجر حاضرًا وبعدها يجلسنا حوله ويحكي لنا حكايةً من حكايات الرسل والأنبياء ثم يبدأ بالكلام عن الله، فيصوّره لنا "بعبعًا". كنتُ أستعيد كلّ ما يقوله لي عندما أرجع إلى النوم، فأخاف وأرتجف وأتخيّل يد الله تخنقني إذا عرف ما أفعله. مرّةً قلتُ لمعلّمة الدين أنّي أتخيّل الله كالأخطبوط له عدّة أطرافٍ. أخبرَت أبي، فعاقبني وأبرحني ضربًا....

أسمعُ وصول رسالةٍ من مجيد، يكمل حديثه دون أن يشعر أنّي أمسيت في عالمٍ آخر...

- الله يكرهني، لماذا خلقني في هذه البقعة من الأرض، في الريف. أكره العرب. نحن الأمازيغ أحرارٌ، فهمت يا حسّان؟ أحرارٌ... وأنتم العرب معقّدون نفسيًّا، تظنّون أنّكم أفضل منا. نعم يا عرب! لتعلموا أنّ الحضارة ليست في ناطحات السحاب الزجاجيّة وسباق الإبل وخصور الراقصات. هذه حضارةٌ مبنيّةٌ من ورق المرحاض. مجرّد خردٍ معدنيّةٍ يسكنها عربانٌ بدائيّون! سيدور الزمن لا تقلقوا! أتعلم يا حسّان أنّ رفع الأعلام الأمازيغيّة محظورٌ هنا؟ ها هو صديقي أزرم[2] قد سجن لأنّه رفعها في إحدى المظاهرات.

ربّما أنتَ العربيّ الوحيد الطيّب! لا أخافك، أنا لا أخاف أحدًا، نحن أحرارٌ، فهمت، أحراااااارٌ.

اسمعْ يا هذا اسمعْ

نحن نستهلك الأعوام مثل السجائر، نسحبها من علبة الزمن، ندخّنها، ولا نتذكّر أين نرميها. على أنّنا نعلم أنّ الأعوام سجائر مضرّةٌ للصحّة والجسد، غير أنّها تفيد العقل. إنّها إدمانٌ طبيعيٌّ ولكن اختياريٌّ. لن يتوقّف حتّى آخر نفس في علبة الزمن المفتوحة. تبًّا لك، وللعرب...

صدّقني لم أقرأ كتابًا لعربيٍّ سوى القرآن، أعرف أنّ لغتهم طيّعةٌ، أمّا الأفكار الّتي استودعوها لغتهم فلا تتجاوز الحبّ والعشق والجنس والكثير من الغباء.

قاطعته متصنّعًا الغضب..

- وبماذا يتميّز الأمازيغ عن العرب؟

2- ازرم اي التنين.

- لا نعبد اللحم ولا ننافق ولا نكذب ولا ندّعي أنّنا نفهم معنى كلمة الربّ والجنّة. لا نحلم بالمناخ الجيّد والنساء وكنّا قبل ظهور الديانات الإبراهيمية...

- مممممم، لا تحلمون بالنساء؟ أنتم قوم لوطٍ إذن...

أردت أن أستفزّه أكثر فأكثر.

- نعم لن تصدّق لأنّك لا تعرف الأمازيغ وتاريخهم. أتعرف أنّ طارق بن زيادٍ فاتح الأندلس أمازيغيٌّ؟

يخرج عن الموضوع كعادته..

- وهل الحلم بالمرأة ضعفٌ حتّى تتهرّب منه وتنسبه للعرب؟

- نعم.. لا لا... أقصد صديقي أنّ سبب كرهي للعرب ليس من أجل النساء، هم طمسوا حضارتنا ونشروا سمومهم فيها وجعلوا العربيّة سادس أركان الإسلام.

أنا أؤمن بالإنسانية فحسب. هل أزعجتك عندما أسأتُ إلى العرب؟

(كلّا، أنا أيضًا أكرههم، وأكره نفسي معهم)

أجبتُ في قلبي....

- أسبق أن قلت لكَ إنّي فاشلٌ؟ أكمل مجيدٌ.

قلتُ بمكرٍ: ولكنّ الأمازيغ لا يفشلون.

- نعم، أنا استثناءٌ، أنا لعنةٌ عليهم....

أمضيتُ حياتي في الدراسة لأصبح مهندس إلكترونيّاتٍ، والآن لا أعمل شيئًا. لن يهدأ بالي حتّى أحصل على الدكتوراه وأنتحر...

- لماذا لا تنتحر من الآن؟

- (ما عندِيش زهر[3]) حتّى لو انتحرت لن أموت. فضلًا عن أنّي لمّا أقدّمْ شيئًا لبني جنسي... ناهيك عن أنّي لا أملك حبيبةً....
- تملك كلبًا وهذا يكفي.... وهو يحبّك.

3- زهر: حظ.

(2)

- مساء الخير، محبّةٌ كونيّةٌ منّي لك...

أنا اليوم متفائلٌ، فرحٌ، أريد أن أصرخ للعالم أجمع أنّني هنا... لست حشرةً.. لست إلّا إنسانًا حالمًا وحيدًا. من ذا الّذي شرط على السعادة أن ترتبط بالأشخاص.. لماذا عندما أتلفّت حولي أرى عيونًا كثيرةً، مجرّد عيونٍ... أظنّ يومًا سيأتي ويغمضها. هذا فعل الزمن. أمّا أنا فسأبقى حرًّا. تعلّمتُ أن أسعد نفسي بنفسي.

تعبت من النوم كلّ النهار كي لا أرى جلّاديّ.

بدأ الشتاء الأوراسيّ هنا، البرد شديدٌ وأشعّة الشمس تحجبها السحب. بعد ساعاتٍ من الانتظار، خرجتُ أخيرًا من القسم. لم أكن أستمع إطلاقًا إلى ما يقوله هذا الأستاذ الهرم. أحسستُ بألمٍ رهيبٍ في رأسي. لا أعرف السبب، لا أعرف إن كان نقص النيكوتين أو الكافيين... تبًّا نسيتُ حتّى معدتي شبه خاويةٍ، تفقدتُ جيبي فوجدتُ عشرين دينارًا فقط. احترت، أشتري قهوةً ساخنةً بها؟ ولكنّي جائعٌ. لا بأس سأشتري سيجارتين بعشرين دينارًا، أدخّنهما، وبعدها أستقلّ حافلة النقل العموميّ لتوصلني إلى القصر الرئاسيّ. هناك طابورٌ من الخراف تفتح أفواهها منتظرةً من يضع كومةً من الحشيش فيها.

هناك يقف الواحد فوق الآخر كيوم الحشر وأنا لحسن حظّي سأصل من دون أن أتحرّك.

فقط بسيجارةٍ واحدةٍ. شربتُ قهوةً ساخنةً وأكلت صينيّة دجاج محمّر بأكملها لوحدي، تخيّل، لم أشارك أمّي وأبي وأختي بها... فقط أنا، ولم أقل ماااااء.

خرجتُ كي أتمشّى في الشارع بعد عزلةٍ دامت طويلًا، الشوارع مزدحمةٌ، سيمفونيّة (بحيرة البجع) تصدح من مكبّرات الصوت في كلّ الأزقّة. صوت الأذان يسمع من بعيدٍ.. أجراس الكنائس تدقّ بسرعةٍ وانتظام بصوتٍ عالٍ جدًّا...

بدأ المطر ينهمر عليّ... الرعد يزمجر ويلمع في السماء. رفعت رأسي فرأيت شهابًا على شكل امرأةٍ جميلةٍ.. تشبه حبيبتي. سمعتها تئنّ مع لحن السيمفونيّة. أصبح النغم حزينًا جدًّا. واستحال المطر سيولًا.

ركضتُ من الخوف، نظرتُ ورائي فإذ بملايين النساء يلحقن بي.. نساءٌ لهنّ نفس الوجه وشكل الجسد: شقراواتٌ كحيلات العيون صغيرات الأنوف مثلّثات الأفكاك بلا تجاعيد.

ضحكن عندما رأين الخوف في عينيّ، فبدت أسنانهنّ متراصّةً كحبّات اللؤلؤ... لا عيب فيهنّ... فما بالي أرتجف من الخوف... أحسّان؟

تعرّين بلمح البصر، لا عضو تناسليًّا لأيٍّ منهنّ... من خلق هذه المخلوقات ممنوعاتٍ من الإنجاب؟ ولماذا تنظر إليّ الأنثى الوحيدة من فوق بين ظلال الشهاب...

أغمي عليّ.. توقّف المطر... سكتت الموسيقى.. صعدت روحي لمصافحة امرأة الشهاب... اقتربَت مني، أخَذتني من يدي وحملتني معها.

لم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهبٌ مع خليلتي... لا يهمّ المكان، تبًا لها... أخَذتني إلى محلٍ لبَيْع الهدايا..

العُشّاق في الخارِج يلبسون الأحمر ويحملون الهدايا...

اختارَتْ علبةً صغيرةً عن الرفّ. وقالت لي: ادفع ثمنها.... أشَرْتُ إلى البائِع أن يُعطيني ما طلَبَت، فإذا بها علبة سجائر فيها سيجارتان فقط، واحدةٌ لي وأخرى لها...

كلّ هذا في كشك صغير.... نقطة لالتقاء العَوالِم.

أتعرِف حسّان أنّ هذه الفتاة أحببتُها منذُ أن كنت صبيًّا صغيرًا... لم تفارقني يومًا.

أتعرف سبب عُزلتي وانطوائي وربّما جنوني... هي السبب.... جعلتني أستغني عن كلّ هذا الكون وأمشي وحيدًا وأنام وأضحك وأبكي وحيدًا.

احتَوتني. لعلّها من عالم المُثُل لسقراط، أتعرفه يا شاعر؟

ليست بيضاء ولا سمراء ولا سوداء، فمعها لا أرى الألوان. هي أشبه بنورٍ والنور ضوءٌ والضوء يحتوي سبعة ألوانٍ.. هي جميعها...

أحيانًا أخونها مع كاساندرا، أتعرف هذه الكاساندرا؟

من لا يعرفها هي بطلة المسلسل المكسيكيّ أو الفنزوليّ كاساندرارارا... الغجريّة الجميلة... خنتها معها في عصر التلفاز الأسود والأبيض....

الحبّ لا يعترف بالألوان ولا بالأعداد...

الشعب كلّه أحبّ هذه الكاساندرا هاهاها

عندما أزطُل أعود إلى الماضي السحيق أحدّثُ أثينَا وأقبّلُ عشتار وأنام مع كليوبترا.

أمسكُ سيجارتي وأسافر عبر الغيوم لتغسل خطاياي، لم أعد أبصرُ سحبًا. غادرتُ الكونَ وأين أنا الآن.. لستُ أدري.

سوادٌ قاتمٌ، لا أبصر شيئًا... وفجأةً سمعتُ صوتًا... يرنُّ حتّى الآن في أذنيّ..

- يا عبدي، مجيد، تقدّم.....

لا أدري لمن هذا الصوت ...ولكن حسب حدسي أنّه لفنان ما يظنّ أنّه الآمر الناهي ...

تكلّمنا عن الوجود واللا وجود وأقنعتهُ أنّني متمرّدٌ وأنّه حاقدٌ شرّيرٌ...أو ربما أنا الحاقد الشرير.

وفجأةً، خطفَ السيجارةَ من يدي وصرخَ بي صرخةَ غضبٍ...

ما هذا؟... قلتُ له جرّبه ، فلعلّكَ تصفحُ عنّا وتحبّنا... فأخَذَ نفسًا وتحوّل إلى نورٍ، هالةٍ من النور.

ثمّ تملّكته سورة غضبٍ جديدةٌ فركلني ركلةً قويّةً.. أفقتُ منها فوجدتُ نفسي مرميًّا على طريقٍ ترابيّةٍ وراء مقبرة ضيعتنا.

وقفتُ على عجلٍ وهممتُ بالركضِ. دعستُ على شيءٍ فإذا به علبةٌ مخمليّةٌ حمراء حيثُ يوضعُ خاتم الخطوبة، وكانت فارغةً... يا تُرى ما السرّ في أنّها مرميّةٌ هنا على قارعة الطريق، وأنّ ألف رجلٍ دهستها.... هل ماتت البطلة... صاحبة الخاتم؟ أم لعلّها لرَجُلٍ حالمٍ راحَ يخطُب فتاةً أحبّها فرفضتهُ، فذهبَ ونبشَ القبر وشلّحها الخاتم ورمى العلبة...

- حسّان لماذا لا تجيب؟ حسّاانووووو....

أين أنت؟ أتكلّم وحدي منذُ ساعةٍ! تبًّا لك... ليتكَ امرأةٌ، فلو كنتَ لكنتُ أحببتك هاهاها.

ولكن لو كنتَ امرأةً لما تركتني أتكلّم... هاهاها لهذا أحبّك يا فتى فقد رمتكَ الطبيعة هنا... كي تسمعني.. وحتّى وأنت غائبٌ أنا أعرف أنّك تسمعني... فنحن connectés...

سأذهبُ للنوم قليلًا... سأعودُ لعزلتي. بقيت سيجارةٌ واحدةٌ، سأدخّنها بالمقلوب وسأشعل المصباح وأنادي صديقي الكلب الهرم..

سنتحدّثُ كثيرًا... يا له من يوم سعيدٍ.... أنا حقًا سعيدٌ.

أرجو أن لا تكون قد نسيتني.. أنتَ مُختفٍ منذ ثلاثة أيّامٍ. أهديكَ هذه الأغنية حبّي... للشاب حسني

"نبغيك ماني مهنّى...."

إنّي أريدك لكنّي لستُ مطمئنًّا

اسمعْها....

(3)

قرأتُ رسالتهُ مرارًا عندما فتحتُ هاتفي وبدأتُ أتخيّل حبيبته.... وهي تتمشّى معهُ... وهي تتمدّد بجانبه على السرير.... وهما يتحدّثان ويضحكان.

أذكرُ أنّه قال لي قبلها إنّها تضحك لكلّ نكاته حتّى السخيفة منها، وتقبّلُه بعد كلٍّ منها قبلةً طويلةً.

بعدها يجرّدها من ثيابها ويرشُّ عليها العطور القويّة والبخور. أخبرَني أنّه رسم وشمًا على كلّ شبرٍ من جسمها باسمه، مستعملًا إبرةً حادّة الطرف. وأنّها كانت تتأوّه مع كلّ وخزةٍ.

يعلّق صورها العارية على كلّ جدران غرفته الرماديّة... صورٌ بالأسود والأبيض أخذها لها بآلة تصويرٍ فوريّةٍ قديمةٍ استبدلها بقنّينة ويسكي...

وبعد أن تتأوّه وتصرخ من الوجع، يفكُّ خصلات شعرها ويديها اللتين ربطهما بالسرير ويبدأ بولوجها ملقيًا عليها القصائد والأشعار...

حتى إنّه استعمل مرّةً إحدى قصائدي الّتي كنت قد أرسلتها إليه....

يقولُ إنّ حبيبتهُ شهدت له أنّه أجمل شعرٍ سمعته منه...

وأنّهما تطارحا الغرام تلك الليلة طوال الليل...

أفكّر بكل هذا وتبدأ دقاتَ قلبي بالدقّ بطريقةٍ متسارعةٍ.

أشعرُ بوهنٍ ينتابني وحاجةٍ ملحّةٍ إلى البكاء والصراخ.

أشعر بألم كأنّ مجيدًا يخز الوشم على جسمي أيضًا... قلبي يكادُ ينفجر... عدّلتُ من جلستي...

منذ خمس ساعاتٍ وأنا أجلسُ في الظلام، دون حراك...منذ أن غادر رفقائي المكان وأنا مذعورٌ... بدا المكان غريبًا وكأنّي أجلسُ فيه للمرّة الأولى.

أخذ الجميع ضحكاتهم وأحاديثهم معهم ورحلوا.

لا أنسى نظراتهم المتعجّبة من أمري أنّي تطوّعتُ وطلبتُ من الضابط المسؤول أن أبقى هنا. لا أريد الذهاب معهم إلى محافظةٍ أخرى، في معركةٍ جديدة.

بقيتُ كيّ أحرسَ المكان من اللصوص الّذين يخرجون لسرقة ما بعد المعارك، أو ما يعرف عندنا بالتعفيش.

فالحرب توقّفت فجأةً، ولا أحد يعلم كيف ولماذا. توقّف القصف وأزيز الرصاص.

الضابط أخبرنا أنّنا مجبورون أن نعود الى نقاطنا. فقد استسلم العدو ولكن يمنع علينا أن نعود إلى ديارنا إلى أجلٍ غير مسمًّى.

هل أنا وحدي الآن في منتصف الليل فعلًا، في بناء الموت، كما كنا نسمّيه وقت المعارك لأنه كان مغناطيسًا للقذائف الّتي تتساقط علينا من كلّ حدبٍ وصوب.

أنا وحدي ورائحة الموت تفوحُ بدل رائحة البارود والحرائق. الجثث تحت الأبنية المدمّرة باتت طعامًا لبعض الثعالب والكلاب، وحتّى بعض الهررة الّتي توحّشت من أكل اللحم البشريّ.

فمنذُ ثلاثة أيام وأنا وحيدٌ آكل البيضَ المسلوق، أعبّئ ماء الشرب من القبو ثمّ أعود مجدّدًا إلى الطابق الّذي أسكنه.

أذهبُ الى مكانٍ بعيدٍ أحفرُ حفرةً في التراب وأجلس القرفصاء لأتغوّط وأنا أنظر حولي خوفًا من تسلّل عقربٍ أو زحف بعض الأفاعي أو من أن يهاجمني كلبٌ مسعورٌ.

لا شبكة إنترنت أو وسيلةَ اتّصالٍ إلّا إن وقفتُ على حافة الحائط في سطح المبنى. عندها فقط أستطيع أن أتوفّق بشبكةٍ وأتلقّى رسائلي. أقرؤها على عجلٍ وأنزل كي لا أقع.... أصوّر المحادثات المهمة كي أتفرّج عليها ليلًا وتؤنسني... هاهاها المحادثات... ليس هناك إلّا رسائل من مجيدٍ، هو وحده من يكلّمني ويشتاق إليّ.. ويعُدُّ أيّام غيابي.

سيظنّ أنّي أتجاهله إن قرأ رسالتي القصيرة له ردًّا على كلّ ما استفاضَ به.

رسالةٌ مقتضبةٌ هي كلّ ما تيسّر لي أن أكتبه بيَدٍ واحدةٍ وأنا أمسك هاتفي على حافّة الحائط.

- أنا بخيرٍ صديقي، لكنّني مشغولٌ لعدّة أيّامٍ في تحضير الدروس لتلاميذي، سأرجع قريبًا... شكرًا على الأغنية.... محبّاتٍ كونيّةً لك أيضًا.

أمكُثُ في الظلام بمنزلٍ مهجورٍ إلّا من بقايا شبه أثاثٍ متناثرٍ كنجماتٍ شاحبةٍ خطفَ البؤسُ لونها، على كنبةٍ عسليّةٍ مخدوشةٍ من كلّ الجهات.. أمدُّ رجليّ على سجّادةٍ حمراء باهتةٍ أتحسّسُ فنجان القهوة بأطراف أصابعي: أحرّكها بشكلٍ دائريٍّ، ثمّ أضع إصبعي في القهوة ثمّ في فمي لأتذوّق طعم السواد، مرٌّ طعمه ولكنّه يمنحني شعورًا آمنًا لأنّي أعرف هذه الطعمة! أتذوّق كلّ أصابعي وألتهي عن التفكير بالعتمة... أنتقل إلى أصابع يدي الأخرى.. أرجع رأسي الى الوراء وأتّكئ على حافّة الكنبة...

أغمض عينيّ، فأرى خيالاتٍ لرجالٍ تصعدُ على شكل بخارٍ من فنجان القهوة الّذي أوقعته بيدي على السجّادة عمدًا...

رؤوس رجالٍ بأشكالٍ مختلفةٍ... الأصلع وذو الشعر الكثيف الأبيض، أنوفٌ حادّةٌ أو مفلطحةٌ، أسنانٌ صفراء تفوح منها رائحة بارودٍ مخزّنةٌ في ذاكرتي.. كلّهم لديهم لحًى...خفيفةٌ طويلةٌ... أبعِدُ رأسي إلى الوراء أكثر، لا زالَتْ عيناي مغمضتين والظلام يلفّ الغرفة ويحمل الرؤوس على راحتيه ويقرّبها من رأسي لتحيط بي كقنابل موقوتةٍ مهملةٍ...

أحرّك أصابعي العشرة نحوها محاولًا إبعادها عنّي.. بدأت أرجف، فركضتُ الى الزاوية وقرفصتُ وتكوّرتُ على نفسي كممسحةٍ باليةٍ مرميّة كانت قطعة ثيابٍ باهظة الثمن في زمنٍ ما وعمرٍ ما..

- لماذا تجلس هكذا!

صوت أبي يلعلع في الغرفة عاليًا... وهو يضيء غرفة نومي.. قُمْ للصلاة يا فاشل، أما زلتَ تكتبُ الأشعار والقصائد بحبيبتك.. قم ربّما تشفع لك صلاتك عند الله فيغفر لك هذه الخزعبلات.. قم..

- حاضرٌ، أجبته بصوتٍ منخفضٍ وأنا أنظر الى القهوة المرميّة على السجّادة الحمراء قبالتي.. أظنّه كابوسًا... لا عجب أنّ كلّ الكوابيس تبدأ وتنتهي بأبي....

(4)

نقلوني بعد خمسة أيّام إلى مركز حراسة أحد المستودعات حيث تجمّع الذخائر. كانت مهمّتي أن أراقب المكان لأنّ معلوماتٍ مسرّبةً أفادت أنّ الإرهابيّين يعلمون بوجوده وسيحاولون الوصول اليه وسرقة محتوياته.

كنت انا وأبو إبراهيم نتناوَب الحراسة.

فتحتُ جهازي وكلّي أملٌ أن أجد مجيدًا متّصلًا بالشبكة، وما أن دخلتُ حتّى أرسل لي بلهفةٍ كما لو كان ينتظرني:

- مرحبًا حسّانووو كيف الحال؟ اشتقتُ إليك فعلّمني أن لا أشتاق هاها
- وأنا أيضًا اشتقتُ إليك وإلى الحديث معك، ماذا فعلتَ اليوم!
- تمشّيتُ مع حبيبتي، حدّثتها عن المتسوّل عبجي وحبيبته اللذين صادفتهما وأعطيتهما دينارًا. فقبّلني الاثنان في الوقت نفسه.

ضحكَت حبيبتي وقالت لي: لهذا أحبّكَ مجيد لأنّك كريمٌ وطيّبٌ.

أتظنّ فعلًا أنّي كريمٌ وطيّبٌ؟ انظر هذه الصورة لي، التقطتها الآن (يرسل لي صورته)

أأشبه الغراب؟

- كلّا أنتَ جميلٌ وجذّابٌ. ولا أدري لماذا الكلّ يظلم الغراب والبومة. مع أنّي أرى الغراب مثيرًا...

- مثيرٌ! مممم.. لماذا لا ترسل لي أنت صورك حسّان، أتخاف أن أقع في حبّك هاها لا تخف لا أميل للشباب... أو تخاف أن أحسد هندام المعلّم الوقور الشّاعر حسّان ابن.... تبًا ما اسم أبيك، ابن من أنت؟
- ابن الكلب... أجبتهُ بعفويّةٍ محاولًا أن أمزح وأحافظ على الجوّ الخفيف الّذي يبعثه دائمًا مجيدٌ....
- على سيرة الكلب، صديقي القلب الهرم كان فعلًا صديقًا وفيًّا في غيابك، لم يتركني... رافقني كظلّي... فغيّرتُ اسمي، من رجل ظلّ الى رجل كلب هاهاها...

نسيتُ أنّ أخبرك أهمّ خبر!!

ضممتُ إلى مجموعتي البائسةِ المؤلّفة من سبع قططٍ وكلبٍ وأنا ضممتُ ديكًا!! اشتريته من السوق بثمنٍ يعادل علبة سجائر...

كنتُ جائعًا ومررتُ بمحلّ بيع الدواجن، سال لعابي.. كنتُ أريد أن أشتري بما لديّ من مالٍ قنّينتي جعةٍ وسيجارةً (ملغومةً)، ولكنّ منظر الدجاج المشويّ ورائحته جعلاني أستغني عن الجعة وأحلم بلمس لحمها الطريّ هاهاها... رآني صاحب المحل وفهم أنّي جائعٌ.. ولا أملك النقود... فأشار إلى ديكٍ أبيض هزيلٍ يركنُ في زاوية القفص. وقال لي: خذ هذا الديك، أبيعه لك فقط بدينارين.

عدتُ به إلى البيت لأشويه، فقامت قططي من صندوقها الخشبيّ الّذي صنعته لها وثبّتهُ على حافة النافذة...، اقتربوا منه مع صديقنا الكلب "شيخ القبيلة" هاهاها ونظروا إليّ جميعًا يتوسّلون إليّ أن لا أذبحه. يبدو أنّ حيواناتي يا حسّان لا تحبُّ الذبح. وقد استجبتُ لها ووضعتُ الديك كي

ينام في المدفأة، فتفحّم من ليلته، والآن أطلقتُ عليه اسم الديك الأسود..

- ولكن ما أعلمه أنّ الديوك لا تؤكل، لحمها ليس لذيذًا كالدجاج.

ولكنّك أمازيغيٌّ ولستَ عربيًّا، فلستَ ممّن يلاحق الدجاجات!

(أردتُ أن أستفزّه قليلًا ممازحًا. ولكنّه أكمل كعادته كأنّي لستُ موجودًا)

- إنّه ديكٌ مختلٌّ، عندما أشعل المصباح الخارجيّ يأتي ليبحثَ عن الطعام. لا يفرّقُ بين الليل والنهار. ثم ينفخُ ريشه، ويحاول الصياح، ليوقظ أهل البيت هاها.

المسكين لا صوت له.

أخبرني ذلك الكلب الهرم صديقي الوفيّ الّذي لا يتركني سواءٌ كان صاحيًا أم سكرانًا. قال لي إنّه سمع ذلك الديك يحدّثُ إحدى القطط السوداء ويسألها منذ متى وأنتم هنا ثمّ يسألها عني... يريد أن يطمئنّ.

أخبرهُ (صديقي) أنّي رجلٌ غريبٌ يتقاسم طعامه معنا، لا يخالط الناس وليس له أعداءٌ ولا يضرب القطط والكلاب الضالّة، ثمّ قال له أيّها الديك لا تخف ستعيش طالما لستَ إرهابيًّا.

سأخبرك شيئًا مهمًّا: كلّ الجزائريّين يحبّونني وسينتخبون مجيدًا. هكذا سمعتُ، عندها ستدفعُ سوريا بلدك الثمن.

الرئيس موجودٌ وغير موجودٍ. إنّه يدعم الكيماويّ ضدّ بلدكم. سأستغلُّ الفرصة وأضغطُ على العامّة مستثيرًا غضبهم على رائحة الدم من الأطفال وصورهم دون رؤوس غرقى. البارحة أردتُ أن أكتبَ خطابًا للشعب فلم أجد إلّا الديك، فنتفتُ ريشتهُ الأخيرة كي أستعملها وأكتب بعد أن غمستُ الريشةَ بدمٍ خاثرٍ مبقّعٍ على الأرض كي أشبه المثقّفين من أمثالك.

سأخرج الآن حسّانوووو... لأتجوّل.. سأشتري سجائر وأعود. سأتجوّل وحدي تعالَ ورافقني. سأروي لك قصصًا. سأتجوّل وأنا أجرُّ الديك المنتوف بخيطٍ رفيعٍ ورائي والكلب الهرم والسبع القطط تلحقُ بنا جائعةً... كموكبٍ ملكيٍّ... أنتظرني....

ضغطتُ على زر الاتّصال في الماسنجر على عجلٍ. ردّ مجيدٌ بصوته الذكوريّ: كنت على وشك الخروج.

قلتُ على عجلٍ كمن يريد أن ينتهي من أمرٍ ما: مهلًا مجيد قبل أن تذهب لديّ سؤالٌ لك:

- متى كانت آخر مرّة مارستَ فيها العادة السرّيّة؟

- منذ ساعةٍ هاهاها أمارسها عدّة مرّاتٍ في اليوم.. إذا لم تزرني حبيبتي طبعًا... صرتُ أكره رائحة العاهرات. هنا في الريف تستطيع مضاجعة الكثيرات مقابل وجبة طعام ساخنة، الشرط الوحيد أن تلجها من الخلف، للحفاظ على الشرف. البناتُ هنا يحفظن القرآن ويحافظن على فروجهنّ هاهاها فلا أحد يدقّق في الفتوحات الخلفيّة، فالعالم أشبه برجلٍ واقفٍ: من الأعلى شعره جميلٌ وأشقر حيث أميركا وألمانيا وبريطانيا وعقله ربما اليابان ويعتني بجمال وجهه، أمّا الوسط فهو مظلمٌ ومليءٌ بالفيروسات. أمّا في الأسفل فأقدامٌ سوداء وسمراء، مشلولةٌ لا تتحرّك. أنا هنا في هذا الجانب المظلم المنكوح من العالم، من الخلف.

آه نسيت أن أقول لك، منذ يومين جاء إلى غرفتي شابٌّ، أراد أن يزطل معي، هو وسيمٌ لديه عضلاتٌ... بعد أن زطلنا أراد أن يلمسني، للحظة ضعفت، ثم استفقتُ من كلّ هذا عندما رأيتُ مؤخّرتهُ مليئةً بالشعر فتقزّزت. أفضّلُ مؤخّرة حبيبتي الطريّة الملساء. طردتُه

من غرفتي...

يجب أن أخرج الآن حسّان لأشتري سجائر، رأسي يكاد ينفجر، نتكلّم لاحقًا.

أغلقَ الهاتف بوجهي دون أن ينتبه إن كنتُ ما زلت على الخطّ أم لا، أثارني حديثه كثيرًا، تخيّلتُ مجيدًا يمارس عادتهُ السرّيّة على سريره ذي القضبان الحديدية. يضع يده الخشنة على قضيبه، واختلطت عليّ المشاعر عندما شعرتُ بوخزٍ في قلبي كلّما تكلّم عن مغامراته الجنسيّة، ودون أن أشعر بدأ بنطالي يرتفع تدريجيًّا، فأنا منذ زمن بعيدٍ لم أشعر بما تشعر به الكائنات الحيّة.

كنتُ جالسًا على كرسيٍّ بمكتبٍ خاوٍ إلّا من طاولةٍ ومدفأةٍ، وبعض المنافض الممتلئة بأعقاب السجائر.

أحسستُ أنّ قضيبي الميّت قد عادت إليه الروح. قد يفتح الغرفة أبو إبراهيم بأيّ وقتٍ ولكنّي لا أستطيع المقاومة، فقضيبي قد وقف كالرمح، وصرتُ أتأوّه على الكرسيّ كثورٍ هائج... أتخيّل مجيدًا يضاجع حبيبته على ما ذكر لي، كيف تلعقُ قضيبه وتغنّجه، كيف يمسّد صدرها، كيف يجلسها عليه وتطلع وتنزل برشاقةٍ، ثم تخيّلتُ مجيدًا مع صديقه، يحاول ولوجه آه آه أشعرُ بقلبي يعتصر وهذا ما يزيد هيجاني.

حي على الصلاة.. حي على الصلاة، تصدحُ بالأذان مكبّرات الصوت في هذه البقعة شبه المهجورة، تصدحُ به عاليًا ... آه... شعرتُ بلذّةٍ فظيعة... ودون أن أعرف السبب، رفعتُ الوسطى من كلتا يديّ، ووقفتُ قبال النافذة، فتحتها وصرخت: تبًّا للعالم والمجد لقضيب حسّان..

(5)

هدأتُ بعدها، أخذتُ سيجارةً، أمسكتها بفخرٍ، ودخّنتها على مهلٍ وأنا أعبثُ بلحيتي الخفيفة، أدخل أصابعي بين الشعرات وأنا أفكّر في حالي طوال مراهقتي: قبل أذان الفجر بربع ساعة، قبل أن يأتي أبي ليوقظني لأصلّي الفجر حاضرًا، كنتُ أثبّت المنبّه كي أستيقظ قبلها، أبدأ بتصفّح المجلات الاباحيّة الّتي أحرص على اقتناء كل أعدادها، ثم أتقصّد أن يأتي ظهري أثناء الآذان. كنت أشعر بلذّةٍ فظيعةٍ، خاصّةً عندما يدخل أبي الغرفة بوجهه الكشر، ويصرخ بي أن أقوم. كنتُ لا أتوضّأ، بل كنت أترك باقي المنيّ في سروالي وعلى يدي.

أشعر بانتصارٍ عليه....

كنت بعدها أذهب الى النوم تعبًا، فأستمع إلى القرآن من المذياع بصوتٍ منخفضٍ، وأدعو الله أن يسامحني على ما فعلته.

والآن شعرتُ بنشوة الماضي مجدّدًا، نشوةٍ تتصاعد كلّما تراكمت الممنوعات داخل رأسنا، ومازلت أنتقم من أبي، ومن مكبّرات الصوت الّتي تجبرنا على القيام في أوقاتٍ معيّنةٍ، ومن مجيدٍ الّذي ضاجع مرارًا دون مقابلٍ، والّذي لا رادع يردعه.

كم أنا ضعيفٌ وهشٌّ، كم أنا فارغٌ إلا من اضطراباتٍ تجتاح جسمي كالسوس، فتنخره، ولا تبقي منه غير قضيبٍ لا يقوم إلّا الفجر...

(6)

استيقظتُ على رنّاتٍ متتاليةٍ وصلتني رسائلَ على الماسنجر. كنتُ منزعجًا كمن استفاق من كابوسٍ. فتحتها فإذا بمجيدٍ يرسل لي صورًا له مع أربعة شبابٍ يبتسمون للكاميرا ويلتفتون حول النار. يبدو من وجوههم وابتسامتهم أنّهم من الطرف (المنكوح من العالم) كما يسمّي مجيدٌ بلدته.

- قيووو[4]

- حسّان واش لدير أستاذ.... تحيّات أصدقائي البؤساء لك، أخبرتهم عنك وأنّك كاتبٌ وشاعرٌ ومثقّفٌ ومرهف الإحساس هاهاها.

لم يفهموا أيّ كلمةٍ ولكنّهم شعروا أنّك مهمٌّ يا صديقي. نسهر حول النار... هم فرحون لأنّي أجلس معهم. الجميع يحتقرهم غيري. أحسّ براحةٍ بجوارهم، فهم لا يحلمون بشيءٍ ولا يحملون خطيئةً.

عن يمين الصورة هذا فنّان الشلّة، وسأرسل لك لحنًا جميلًا له أسماه "خبز المشرّدين"، اسمه الصالح ولا أظنّه صالحًا لشيءٍ، مهنته الوحيدة هي القيثارة، أحيانًا أشتري له الكحول ليعزف وأدعوه للمبيت عندي.

إلى جانبه صديقي عمّارٌ، وهو كما ترى نحيفٌ ضئيلٌ، لا يأكل. يظنّ أنّ أمّه قد دسّت له سمًا في طعامه، ويكره إخوته. هذه صورته في الشتاء، على أنّه لا يلبس معطفًا.

4- قيو: كلمة جزائرية تستعمل خاصةً في الشرق للإستهزاء.

أقسم لك هذا اللباس لا يغيّره صيفًا ولا شتاءً، أعطيته ملابسَ رماها هاهاها تبًا له، مجنونٌ، أتعرف ماذا يكتب كلّ النهار؟ يعدّ الأيّام على الرزنامة...

يختلط عليه مفهوم الوقت والتواريخ ولكنّ له ذاكرةً فذّةً، فقد يتذكّر مثلًا اليوم الّذي أعطيته فيه سيجارةً ولو كان قد مضى على ذلك سنتان، سيقول لك: يوم الثلاثاء 10 شباط 2014.

كنت أظنّه يمزح إلى أن تحقّقت مرّةً وكان محقًّا ابن القحاب...

أمّا جلالٌ هذا الّذي يدلي بلسانه في الصورة كالكلاب ، فهو يملك شهوةً أدخلته السجن مرارًا، وهو يقول: النساء خلقنَ للاغتصاب، وكي ندخل نحن السجن بسببهنّ.

مرّةً أخذته إلى بيت مسكينةٍ أعرفها. كنت قد ضاجعتها مرارًا فقد كانت ترضى بالقليل.

قلت له: هيّا افعلها بالحلال هاها.

أعطيتها دينارًا وقلت لها دلّليه

انتظرت خارجًا، فإذا بصراخها يعلو. هجم عليها الحيوان كي يغتصبها هاها.

تأمّلت وجه كلٍّ منهم، وأنا أتخيّله ضمن المشهد الّذي يرويه لي مجيدٌ.

وكتبت له وكلّي فضولٌ:

- والكائن الرابع، ما اسمه؟ ولماذا يلبس هكذا؟

- إنّه عبجي، أشهر من نارٍ على علم هاها

عبجي يلبس ملابس نسائيّةً كلّ الوقت ويتكحّل، ويقطع كلّ يومٍ

عشرات الكيلومترات ليحصل على قطعة لحم حتّى في برد الشتاء القارس، لا يرحم قدميه الحافيتين. يزعم أنّي سأتزوّج. أظنّه عرّافًا. دائمًا يردّد على مسمعي: ابقَ كما أنت، ستقهرهم، لن يتمكّن الخبثاء منك.

هؤلاء هم أصدقائي الّذين أخبرتك أنّهم سينتخبونني إن ترشّحتُ للرئاسة، فهم يحبّونني ويحترمونني بجنونٍ، يضحكون كثيرًا، يستفزّ بعضهم بعضًا، ويتناوشون كلاميًّا ولكنّهم لا يتعاركون.

هل أستطيع حسّان أن أتّصل بك فيديو لتتلو لهم بعض أشعارك، ما رأيك؟

لم أردّ عليه، بل أغلقت هاتفي، وانتابتني قشعريرة بردٍ. يبدو أنّي نمت نصف عارٍ طوال النهار، بعد أن استمنيت عدّة مرّاتٍ متتاليةٍ. شعرت بالتعب الشديد، هذا ما أذكر، وغفوت على الأرض.

يجب أن أغتسل بسرعةٍ.

كان الجوّ باردًا. بعد استحمامي وغسيل ثيابي، جلست عاريًا، ألفُّ بعض الشراشف على جسدي، وأنتظر ثيابي أن تجفّ، فدوري في المراقبة يأتي بعد ثلاث ساعاتٍ.... راحت أفكارٌ غريبةٌ تطرق رأسي، أحاول أن أتذكّر بماذا كنت أحلم قبل أن يوقظني مجيدٌ. لا بدّ أنّه الكابوس نفسه، أراه منذ ثمانية أشهرٍ لا يتغيّر قيد أنملةٍ، فقط لو تحرّك قليلًا... فقط لو صرخ.. لو....

بدأتُ أجهش بالبكاء، بدت الغرفة حالكة السواد مع أنّنا في العصر. الحيطان المصدّعة تقترب منّي وتلفّني من أربع جهاتٍ، وتلتصق بي. أشعر

الآن كأني في قبرٍ ضيّق.. أسمع أصوات أصدقائي العسكريّين يصرخون في وجهي: تكلّم تكلّم أخبرنا عن تفاصيل لياليك...

وضعت يديّ على أذنيّ كي لا أسمع صراخهم. لن أتكلّم... سأمثّلُ لكم... سأتمدّد على فراشي وأمدّ يدي إلى..... عقلي. سأخلعه من مكانه. إنّه سبب أرقي، لا ينفكّ يذكّرني بما فعلت. أُصاب بنوبات هلع على أصغر التفاصيل الآن. على تساقط شعري أهلع... على نظرتي القاسية أهلع... على عجزي عن الانتصاب لثمانية أشهرٍ تامّة أهلع... على نسيان رائحة أمّي أهلع... على حقدي على أبي أهلع... على أنّ منظر الدماء لم يعد يثير فيّ رغبة التقيّؤ أهلع....

استطعتُ أن أصل بصعوبةٍ إلى قهوتي البائتة من البارحة، أخذت رشفةً، معفّنٌ مذاقها، ولكنّي استطيبتها، فهي الشيء الوحيد المتحرّك في هذه اللحظة الساكنة... في هذه الغرفة الكئيبة.. عند الخامسة عصرًا... فقط سوادٌ، سواد قهوةٍ معفّنةٍ من سنين أو أيّام أو ساعاتٍ. صرختُ عاليًا، انهرت، رميتُ الشرشف الّذي أضعه على كتفيّ، اختنقت... وجهه يقترب منّي... يجب أن أهدأ... أن لا أفكّر به.. أن لا أفكّر بالظلمة... بالسواد.

يجب أن أركّز على الدم، الأحمر سيغلب الأسود.. نعم الدم، في ذاكرتي الكثير من الدم... نوبة الهستيريا هذه أفقدتني ذاكرتي للحظاتٍ.

الدم الدم... صرختُ... يجب أن أستحضره... كسرتُ كوب القهوة بيدي... أمسكتُ قطعةً من الزجاج المتناثر، وعصرتُها بكلّ قوّتي بين أصابعي النحيلة المرتعشة.. سال الدم من يدي، سال خفيفًا زهريًّا.. سحقًا حتّى دمي خذلني... يشبه قهوتي البائتة... جفّ.. سحقًا.... السواد يخنقني مجدّدًا... السقف يتصدّع فوقي...

إنّها لم تتعدّ الخامسة عصرًا.. فمهلًا حتى منتصف الليل... أيّها الموت البطيء.

غفوت مجدّدًا على الأرض، عاريًا... من الواقع.

حلمتُ بالكثير من الرجال بوجوهٍ منتفخةٍ وقوامٍ هزيلٍ وشعرٍ خفيفٍ كمرضى السرطان في أيّام علاجهم الكيميائيّ... وجوههم دون ملامح ولا أحاسيس، ونظراتهم غريبةٌ، يحدّقون بي ولكن دون أن يروني. لا يرمش لهم جفنٌ. كلّهم في الخمسين من العمر، تفشّى فيهم السرطان من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، تجمّعت حولهم الحيوانات من كلّ الفصائل، تشمّهم تنتظر موتهم لتقتات منهم.

يقعون على الأرض، يموتون بالمئات ثم ينبتُ غيرهم باللحظة نفسها... كالبراكين الساكنة...

يُخلقون على الهيئة نفسها ثمّ يموتون.

فجأةً بدأت الحيوانات تبتعد عنهم بعد شمّهم كأنّها تكره طعم هذه الجيف المسرطنة، ثمّ اندلع حريقٌ كبير التهم الجميع دون أن يهرب أحدٌ... عرفت من بينهم صورة عبجي وجلالٍ والصالح وعمّارٍ أصدقاء مجيدٍ ومعهم مجيدٌ يمدّون ألسنتهم لي ويخرجون أعضاءهم التناسليّة من سحّابات بناطيلهم ويوجّهونها إلى وجهي ويبولون عليّ.

اقترب عبجي الّذي يلبس تنّورةً. تقرفص فوق وجهي وبدأ بالتبوّل أيضًا.. أحسست بماءٍ ساخنٍ يغمرني، فتحت عينيّ... فرأيتُ بقعةً كبيرةً صفراء على الأرض، تحتي مباشرةً.

(7)

فتحتُ ليلًا كي أردّ على مجيد، فقد أغلقت دون أن أقول له، وهو قلّما ينتبه إلى هذا، ولا أذكر أنّه عاتبني قطّ وهذا ما يريحني في علاقتي به، إذ لا يضطرّني إلى اختراع الحجج الواهية.

أستمتع برسم عالمه الأخضر في الطبيعة مع ناسٍ طيّبين وسجائر وكحولٍ ونساء... ووجباتٍ ساخنةٍ بسيطة. كأنّه عالمٌ من الرسوم المتحرّكة الملوّنة. أجترّه مشهدًا مشهدًا في ليالي الطويلة الموحشة، أضع على كلٍّ منها لمساتي، وأسقطه على عالمي المظلم، كبقعة ضوءٍ بعيدةٍ.. تُختزل بمجيدٍ.

يا ليتني أعيش مثله حرًّا.

رأيته ناشطًا على الماسينجر

- مرحبًا صديقي مجيد، عذرًا البارحة انقطعت الكهرباء وكان عليّ تحضير امتحانات نصف السنة للطلّاب.. عذرًا كيف حالك؟

أجابني على الفور: تبوّل الآن قطٌّ زنجيٌّ عجوزٌ في فراشي، أظنّه شمّ رائحة الخمر والزطلة... تبًّا له، لكن على نفسها جنت براقش، فالليلة رعدٌ وبرقٌ. إن وضعته في الخارج لن يقاوم البرد حتّى الصباح.

رائحة بوله نتنةٌ، والله لا أظنّه إلّا قد شرب من كأسي. والديك الغبيّ لا يزال من ساعةٍ يقف قبالة مرآةٍ صغيرةٍ مكسورةٍ مستندةٍ إلى الحائط لا يفارقها، ينفخ صدره ويقترب منها ويحدّق بنفسه.

أمّا الكلب العجوز فلم أجده عند عودتي من التنزّه. أظنّه وجد ملجأً دافئًا أو ربّما لم تعد تعجبه بقايا الطعام. أسالت لعابَه رائحةُ اللحوم وأطباق الطعام الساخنة المليئة بالدسم.

لكنّه سيعود حتمًا، لا أحد سيطيق نباحه، فهو أيضًا من الجانب المنكوح من الأرض. الغبيّ لديه أحلامٌ أيضًا هاهاها، على شكل عظمةٍ... ("وعظمة على عظمة" آ حسّان هاهاها)

أتعرف حسّان أتمنّى لك ولأمثالك الموت أو الإصابة بكلّ أنواع الأمراض!

غيّر نبرته الهازئة إلى جدّيّةٍ حاقدةٍ دون تمهيدٍ.

استفزّني كلامه كثيرًا ولولا أنّي أعلم أنّه تحت تأثير الزطلة والخمر كعادته بهذا الوقت، لكنت انفجرت فيه.

ولكنّ المرّات القليلة الّتي يكون فيها بكامل وعيه صارت تعدّ على الأصابع. بل إنّه أكّد لي بنفسه أنّه حسب الأيام الّتي عاشها حتّى اليوم، فوجد الأيّام الّتي كان فيها مسطولًا أكثر بكثيرٍ من تلك الّتي كان فيها واعيًا.

أجبته بكلمةٍ:

- يا لك من حاقدٍ!

أكمل:

- نعم، فأنا منبوذٌ ومن سيحبّني وأنا سكّيرٌ زنديقٌ؟ غسلت وجهي منذ قليلٍ، فلم أعد أبصر روحي.! أتذكر الفنّان الّذي حدثتك عنه؟ أنا متأكّدٌ أنّه يشبهني. يصنع الوجوه الجميلة عندما يكون صاحيًا، ثمّ يزطل، فيصاب باللامبالاة. فخلقني أنا وعبجي وجلالًا وعمّارًا وغيرنا

الكثيرين مشوّهين.

ثمّ يخدعكم أنتم المؤمنين بفنّه و عظمته، فيقول: أكرمكم أتقاكم هاهاها

كم هو نرجسي و سادي ومزاجي هذا الفنان، أحيانًا أقتنع أنه رمى من مروحيّة ضخمة مخدّرًا قويًا على الجميع، وأنّ مفعول هذا المخدّر أقوى من المورفين، ينثره مجّانًا على الجميع دون استثناء. لا يطلب بالمقابل منّا إلّا الالتزام ببعض القواعد كردّ جميلٍ له على هديّته السخيّة المجّانيّة. لا يطلب الكثير، يطلب من الفقراء أن يأخذوا وضعيّة الخراف، فيطأطئوا الرؤوس لا يرفعون عيونهم إلّا لتنفّس الهواء الملوّث ولتنشّق جرعةٍ إضافيّةٍ من المخدّر، وإلّا كيف سيتحمّلون كلّ هذا الذلّ من أجل قطعة لحم.

أمّا الأغنياء فربّهم أيضًا لم يطلب منهم الكثير مقايضةً لمخدّره المجّانيّ.

طلب منهم فقط أن يؤكّدوا لدارون أنّهم قردةٌ وسيظلّون. يتشابهون، من جنسٍ واحدٍ خلقهم، فلا ذكر ولا أنثى بينهم، فقط قردةٌ، لا يعرفون من الرجولة شيئًا ولا من الأنوثة طرفًا. وكيف سيعرفون فهم قردةٌ، يقفزون من ملهًى الى آخر، يتسلّقون الخراف بدل الشجر، نعم فقد ولّى زمن ركوب الحمير. وحده أبي راعي الأغنام ما زال يملك حمارًا. الآن القرود يا صاحبي تمتطي الخراف، تجلدهم يوميًا مئات المرّات، وقد تصل إلى الألف إذا سمع أنينهم.

ولكن لا أحد يسمع....

- فلنتوقّف عن هذا الحديث، قاطعته

- تخاف أن تغضبه فيذهب النتّ إلى يوم الدين هاهاها

تعرف حسّان أنّي أعتبرك الشيء الوحيد الملموس في هذا العالم الافتراضيّ.

أنت إنسانٌ حقيقيٌّ، لنقل أنّك نقطة التقاء العوالم... تبًّا أنت أخطر من الحشيش.

قرصتني نملةٌ، تبًّا.. أنا أعيش مع النمل وبقايا السجائر. سأخرج لأفتّش عن الكلب، وأجلب القطّ الّذي طردته، يكفيه هذا العقاب. القطط ضعيفةٌ لا تقدر أن تضرّك بشيءٍ وحتّى إن كانت سارقةً وماكرةً، فهي لا تعلم.

أنا أسرق من أخي عندما أساعده في الصيف في الدكّان دون أن يعلم.

قططي كانت تلعب كلّ يوم أمّا الآن فهي في خريف العمر، وجدت نفسها برفقة رجلٍ فاسدٍ لا يوفّر لها الحياة الكريمة كما يفعل الأوروبيّون مع قططهم. لكنّها سعيدةٌ لأنّها لا تعرف كيف تعيش القطط الأخرى. لهذا ليست قططي حاقدةً.. سأخرج، لأجلب القطّ فيكفيه هذا عقابًا، فأنا رحومٌ غفورٌ هاهاها

هل تعرف يا صديقي مجيد أنّ قطّك العجوز العاهر تسلّل إلى غرفتي بعد أن طردته؟

فقد كنت أتمشّى قليلًا وأجلب بعض الطعام والشاي، وعندما عدتُ إلى مكان نومي، وجدتُ كاسات الشاي والصحون نصف الممتلئة طعامًا قد وقعت على الأرض.

كما أنّ وسادتي قد ممزّقت وتغيّر مكانها. حملتُ سلاحي وجلستُ في مكانٍ مقابل غرفتي أنتظر مرور ذاك الشبح الزنجيّ...

يبدو أنّك نقلتَ لي حقدك العنصريّ فإذا بي أنعتُه بالزنجيّ الحقير العاهر، قرّرت أن أضع حدًّا لهذا الخوف.

مكثتُ بلا حراكٍ لعدّة ساعاتٍ وعندما اشتدّ الظلام، بدأت أسمع حركةً. فتحتُ بؤبؤي عينيّ على وسعهما، واختفى جسدي الضئيل بظلام الغرفة، كنت أشمشم كلّ ما حولي كي أعثر على هذا الطيف الغريب. الصوت بدأ يزداد شيئًا فشيئًا وأنا أنتظر اللحظة المناسبة كي أفرغ رصاصاتي في جسم هذا الكائن الغبيّ. شعرتُ بنفسٍ غريب يقترب من وجهي ولسانٍ دافئٍ يلعقُ أنفي. فتحت الضوء على عجلٍ، وصرختُ عاليًا.عندها وقع ناظري على عينين خضراوين ثاقبتين لقطٍّ مترهّلٍ بشعٍ... استغفرتُ الله خمس مرّاتٍ، فكما كان يقول أبي إنّ الأرواح والجنّ والشياطين يسكنون القطط السوداء.

ركعتُ بعدها وبدأت أربّت على وبره المبلّل... كان لا يستطيع أن يتحرّك من ثقله. بدأ بالمواء خفيفًا ثم علا مواؤه كأنّه يريد أن يقول لي شيئًا... تبًّا، أظنّه يريد أن يفشي أسرارك يا مجيد...

يبدو أنّه ثرثارٌ أو حاقدٌ لأنّك تركته ليلةً كاملةً خارج غرفتك، في هذه الليلة الهوجاء.

سحقًا بدأ يموء كامرأةٍ لا تصل إلى نشوتها رغم محاولات زوجها البائسة. أظنّه ارتشف فعلًا، هذا القذر، من كأس الوسكي الّذي تركته أنت على حافّة سريرك.

صوت مواءه المستمرّ وشكله البشع المقرف أثارا حنقي. يجب أن أقتله، يجب أن أقتله.. يجب أن لا يعود إليك ليخبرك بما رأى عندي.

سأقتله هذا الثرثار، فمن يحتاجه؟ ومن سيلاحظ غيابه؟ وأخفي سلاحي... وأنام، أنام.

أرجوك صدّقني، لستُ بقاتلٍ... لست بقاتلٍ.

محوتُ كلّ هذه الرسالة بسرعةٍ، حرفًا حرفًا كي أتأكّد أنّ مجيدًا لم يصله ولن يصله شيءٌ منها.

وكتبتُ عوضًا عن هذا

- هل وجدتَ قطّك العجوز صديقي؟ طمّنّي عنه!

(8)

رنّ هاتفي بإصرارٍ عند الرابعة فجرًا، ما زلت مستيقظًا، جالسًا على تنكةٍ قرب باب المستودع وإلى جانبي طاولةٌ صغيرةٌ من قشٍّ ممزّقٍ، عليها أدوات المتّة وفناجينها، وبندقيّتي في حضني. أتطلّع إلى السقف منذ أربع ساعاتٍ، منذ أن كتبت إلى مجيدٍ. نادرًا ما يتّصل بي بالصوت على الماسنجر. رددتُ فإذا بصوت مجيدٍ متهدّجٍ وخشنٍ وغريبٍ...

صرخ بي وهو يبكي:

- صديقي حسّان صديقي... فقدتُ عقلي، أين أنا؟ الصباح يقترب، حنجرتي تؤلمني، البرد قارسٌ. أكاد أتجمّدُ، يداي ترتجفان، أنفي مسدودٌ.

(ثمّ بدأ يضحك فجأةً) لا أدري لِمَ أضحك، ثمّ أبكي، لا أعرف، أنا آسفٌ حسّان.

أُقفِلَ الباب عندما خرجتُ للتفتيش عن القطّ والكلب. المفتاح في الداخل. (يبكي مجدّدًا).

نبكي كلّنا هنا يا حسّان ، نبكي تحت المطر، نمنا على الوحل، غمرتنا المياه. سبحنا نحن الثلاثة.

الكلب والقطّ شمّا رائحة موتي وعفني، فاختارا أن يموتا معي.

نجوتُ من الموت سابقًا عدّة مرّاتٍ. ربّما سأموت الآن، كيف؟ لا أدري، ربّما لسعة ثعبانٍ يسبح في هذا الماء! ربّما غرقًا في البحر، ربّما عطشًا في الصحراء... لكنّ الموت في الماء أفضل لقوله تعالى: وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ....ماذا لو متّ في الماء، هل سيجعلك الماء حيًّا...

سأحيا على هيئة سمكةٍ لكنّ جسدي سيبقى هناك على اليابسة وروحي ستبقى سمكةً. لكن مجرّد وجبةٍ طازجةٍ لأحدهم. سأقع في شباك أحدهم لا محالة. كثر الصيّادون، وأنا صيدٌ فاسدٌ سيرمى إن تصيّده أحدهم. وأنا نسيتُ السباحة. صدّقني سأموت، نسيتُ كلّ مهاراتي الغريزيّة.

بعدها لن يبكي أحدٌ إلّا أمّي، سيحزنون قليلًا، أعترف، ثمّ يأخذونني في موكبٍ لا أظنّه عظيمًا إلى حفرةٍ في التراب لأدفن كبراز قطّي البشع وسط مقبرتنا القديمة أسفل الجبل. سيتركونني هناك. نعم هكذا يفعلون دائمًا.

وها أنا في قبري، جثّةٌ هامدةٌ تتعفّن يومًا بعد يوم، حتّى إنّ رائحتها بدأت تثير انتباه الديدان. وها هي جيوشها تغزو قبري. إنّها تنهش جسدي. لا أحسّ بشيءٍ، لكنّني في سكونٍ رهيبٍ.

يوقف بكاءه ويصرخ بي:

- لا تحزن عليّ! لا تتفاخر، ستطرحُ في المكان نفسه وبالمكانة نفسها. فرّقتكم فقط المراحيض، وستجمعكم قنوات الصرف الصحّيّ إلى البحر. لتجتمعوا مرّةً أخرى عبرةً للأسماك الأخرى. القروش الّتي تتباهى بألوانها...

قاطعته:

- هيّا اهدأ، قل لي، هل فتحتَ الباب؟لماذا لا تخلعه؟

- أنا ممدّدٌ على عتبة الباب، لا أعرف ماذا أفعل. ورائحة العفونة تفوح من القطّ والكلب.. يبدو أنّهما قد غفوا... والعاصفة لا زالت على حالها، والماء يصل إلى ركبتيّ...

لا أريد أن أغفو لئلّا أموت وأنا نائمٌ، ولكنّي جائعٌ. الديك نائمٌ أيضًا. هل أستطيع أن أنحره وهو نائمٌ وآكل لحمه. هل يجوز ذلك أو عليّ أن أنتظره حتّى يستيقظ؟ ولكنّه ليس كباقي الديكة. وأنت تعرف أنّه لا يتقيّد بالنظام الدنيويّ. هو زنديقٌ إذا وجب قتله فعليّ قتله ولو كان يغطّ بالنوم، هذا الحقير.

لا تقلق، تشهّد بعدها؛ فالمضحك في دينهم إذا أمسكوا بك للذبح على أنّك تسب الله، فقل: لا إله إلا الله، محمّدٌ رسوله أو وليّه... لا فرق.. ستنجو.

أظنّ أنّ كلّ الضيعة يريدون قتلي يا حسّان لأنّي لا أذهب إلى الجامع يوم الجمعة. أقسم لك، أنّهم من أرسل هذا الطوفان، ومن أغلق الباب...

وأنا غراب نوح، ونوح الغراب، وسفينتي تحمل ديكًا هزيلًا، وقطًّا زنجيًّا، وكلبًا هرمًا، والكثير من النمل.

(9)

صارت الساعة الخامسة فجرًا، ولم يوقظني بعد.

غريبٌ أمره، هذه أوّل مرّة تحدث منذ أن صارت الصلاة واجبة علي.

ومن وقتها لم نتخلّف عن القيام إلى صلاة الفجر واجبًا أنا وأخوتي. في البدء كنت أتضايق وأبكي خاصة في البرد.

حاولتُ الرفض مرات عديدة بطريقةٍ أو بأخرى مستعينًا بكل أنواع الحجج، ولكن العقاب كان موجعًا.

لهذا قررتُ بيني وبين نفسي أن أفسد وضوئي كل فجر قبل أن يوقظني والدي بدقائق.

صارت الساعة الخامسة والربع.

قررتُ أن أستمئي للمرة الثّانية على التوالي، وأنا أفكر: هل يُفسَد الوضوء مرتين؟ كنت كل مرة أقوم للصلاة وأرى وجهه العبوس، أبتسم سرّي، وأشعر أنّي انتصرت.

كنت في منتصف هيجاني وأنا أتفرج على صورة بنت خالتي ونهديها البارزين في عرس أحد الأقارب لنا. أتخيل أنّي أرضع من حلماتها، بدأت أحرّك يدي بطريقة أسرع على قضيبي وأتنهّد. وأنفاسي تتسارع... أضع نهديها الاثنين في فمي وألحسهما... قلبي يدقّ، يدقّ...

(حسّان... حسّان افتح الباب)

بابُ غرفتي يدقّ بقوّة، أصواتٌ وصراخٌ في الخارج... لم أعد أعرف ماذا أفعل. فأنا شبه عار.

(ماذا هناك. ثوانٍ وآتي...)

فتحتُ الباب وتوجّهتُ إلى حيث يصرخ الجميع، في غرفة أبي. كان ممددًا على سريره بدشداشته البيضاء. عيناه مفتوحتان. ينظر إليّ بعبوس. يريد أن يأمرني أن أفعل شيئًا.

الكلّ يصرخ وينتحب حوله بطريقة هستيريّة .

اقتربتُ منه بهدوء ماشيًا بطريقة واثقة تليق بأهميّة

الابن البكر، أغمضتُ له عينيه بكف يدي، صرتُ أحرّك أصابع يديّ فوق وجهه وأتمتم بسرّي كلمات غير مفهومة.

ثم صرختُ: لا اله الا الله، لا اله الا الله... الله أكبر، الله أكبر....

توجّهتُ بعدها إلى الحمام، توضأتُ لأوّل مرة في حياتي.

ذهبتُ الى غرفتي، صلّيتُ الفجر قضاءً. أخذت صورة ابنة خالتي من تحت الوسادة... كي أكمل ما بدأت به... قبلتها طويلًا على رقبتها البضة.

انتصب قضيبي وأنا أفكر: هل الله استجاب الى دعواتي المتكررة أن يموت؟ أو أنه قضاءٌ وقدر؟!!

(10)

(لستَ الرب، لنؤمن بوجودك دون أن نراك!)

(وراه حقي تاع الكوكايين)[5]

(الف مليار نديرو كارلاج للكرة الأرضية يبقى لنا الصرف)[6]

(لا للعقدة الخامسة، Dégage)

(زوجونا كرهنا من التبنيط)

أرسلتُ هذه الشعارات إلى مجيد بعد أن شاهدتها على قناة إخبارية عربية، عن فقرة بعنوان: أكثر اليافطات طرافة التي رفعها المتظاهرون في المسيرة المليونية التي تشهدها الجزائر اليوم.

وقد بدأتْ بمطلب واحد هو رفض التجديد للعقدة الخامسة لبوتفليقة، رئيس الجزائر الذي يحكم منذ عشرين سنة. وإعادة السيادة للشعبَ.

غليان واحتقان في الشارع. زُيّنت الأعلام الجزائرية بألوانها الأبيض والأحمر والأخضر المظاهرات الرافضة.

امرأة مسنّة تحمل علمًا ملطخًا بدماء من حاربوا ضد الاحتلال الفرنسي. تحتفظ به منذ سنة 1953.

5- أين حقي من الكوكايين.

6- بألف ومليار ممكن أن نبلط الكرة الأرضية ويبقى لنا فكة.

صور شهداء ورموز الثورة الجزائرية رُفِعَت.

جزائريون من كل الأعمار والفئات والأجناس على كراسٍ متحركة يصرخون: (نحن لسنا ذوي الاحتياجات الخاصة، بل ذوو الاحتجاجات الخاصة).

الأطفال أيضًا شاركوا.

رأيتُ عائلات جزائرية توزع الكسكسي والتّمر واللّبن والماء وحلوى الزلابية على المتظاهرين الّذين وصلوا من مدن بعيدة للتّظاهر.

هذا المشهد جعلني أشعر بالحنق.

لو شاهدت نفس المشهد منذ خمس سنوات ،لكنتُ بكيتُ مر الحماس والأمل.

الآن نعم أنا غاضب. نظرتُ إلى أبي إبراهيم وقد فهم ما أقصده دون أن أتكلّم. بصقنا على التلفاز وعلى الأرض وعلى الحيطان، وشتمنا أميركا وإسرائيل وفرنسا: (كس إم بشار ع حافظ ع بوتفليقة ع الشعب ع الفقر ع التعتير) .صرنا نتقاذف الشتائم ونقفز في مكاننا أنا وهو كمن تلبسه الجن.

نضحك ونبكي ونصرخ.

قربتُ شفاهي من التلفاز الصغير وصرختُ بالناس كي يسمعوني:

- عرقكم أشرف من الوطن، أنظروا أين أصبحنا نحن ومن أصبحنا....

ضحك أبو إبراهيم بصوتٍ عالٍ وسألني: لماذا تكلّمهم بالفصحى؟ هاهاها

أجبتُ بعصبيّة: لأنّ معظمهم يفهمون فقط الأمازيغية ولهجتنا الشامية مختلفة...

هاهاها ضحك مجدّدًا أبو إبراهيم قائلًا: أقنعتني...

اقترب أكثر من التلفاز وأكمل الصراخ قائلًا:

- يا لهم من بؤساء، يا لنا من حقيرين...

(11)

- التبنيط هو خنق الأفعى اللينة حتى تصبح قاسية وتقذف سمًا ممتعًا.

ونحن في الجزائر نبنّط كثيراً هاهاها أي نستمني يا صديقي..

هكذا جاءتني رسالة من مجيد ردًا على سؤالي له عن معنى بعض الكلمات في الشعارات المرفوعة في المظاهرات.

"تعبنا تبنيط" أي كلّ الشباب يستخدمون فقط يدهم لقضاء حاجاتهم الجنسية بسبب صعوبة الزواج وتأسيس منزل وأسرة. ولكنّنا تعوّدنا يا صديقي. نحن شعب لا نعرف الولوج إلّا من المؤخّرات لذا "التبنيط" أخذناه عادة من "tante فرنسا" هاهاها.

فمنذ استقلال الجزائر سنة 1962، اشترت فرنسا علبة تحكم عن بعد، ونامت. يدها اليسرى في مناطقها الحسّاسة ،تتأوّه فرحًا. واليد اليمنى متحكمةً بالعلبة. وشعبٌ بأكمله يشاهد استمناءها عليه و"يبنّط على الريحة" ها ها ها.

أنا أشاهد أفلام البورنو بالمقلوب. أترك مشهد لبس الثياب والقبل ، خاصةً القبلة الفرنسية إلى الأخير. أستمتع بال " اه" بالفرنسي، فيها إثارة ولذة.

Oh mon dieu... قيووو هاهاها

العربي سئمنا منه، جودته ضعيفة، لا يثير أحدًا. العلاقات غير الشرعية والفانتازمات بلغة أجنبية تعطي شعورًا شرعيًا هاها

الصور في التلفاز العربي لا زالت على الأسود والأبيض، هل تعلم يا صديقي أنّي كنت أتساءل طوال طفولتي لماذا جميع من يظهر في التلفاز صوره مهزوزة. فأخرج الى الشارع وأقارن مع وجوه النّاس ولا أفهم لمَ لا يهتزّون. بعد أن كبرت عرفت أنّ فقط تلفازنا رديء الصنع والألوان. فصرتُ مشوشًا. وبعدها بفترة صار الناس يهتزّون من حولي كشخصيات تلفازنا....

قاطعت استرساله بحياء مفتعلًا نوعًا من الحماسة إلى الثورة كأي إنسان طبيعي:

- ولكن هل شاركتَ في المظاهرات؟ أو تريد أن تبنّط طول عمرك؟

أضفتُ بكل مكر.

أجابني: أغلب الّذين تظاهروا هم ناس محرومون، والحرمان يولّد الحقد والحقد شعور آلي، متغير حسب الحرارة، الملل هنا هو الغالب كما الفراغ وهو الدافع ليس إلّا.

- ولكنه حراك مليوني حسب ما رأينا في التلفاز!

- أتعرف أنا سأستمتع باحتراق هذه الجزائر، سيكثر المندسّون، لن أشارك في مظاهرات الحمقى. يتظاهرون من أجل تغيير الرئيس. كم يبلغ عدد المسؤولين في الجزائر؟ ألف مثلًا... ما رأيك بتغيير الشّعب؟ كيف أتظاهر بعدم احقّيّة رئيسهم وأنا أنفي وجود دولة اسمها الجزائر، باترونة فرنسا. لن نستقلّ حتّى نكون أقوياء، هكذا أخبرني قديم

محاربي السلاحف، فهو صديقي. عندما أصل الى عمره سأقدّم آخرين قربانًا للوطن. لم يضحّ السابقون من أجلنا كي نستمتع نحن اليوم. لن أضحّي بحياتي لأني لا أملك حياة. سأذهب الى الحكومة وحدي وأطلب منها حربًا لي وحدي، نعم لي وحدي أنا. أنا لستُ مواطنًا، أنا رقم تسلسلي على شكل كلمة مرور: maniyok ، بلغة الأنفورماتيك. أنا رقم سرّي كوني يتذكّره حكامنا ويفتحون به صفحاتهم السوداء.

نحن الحشرات الصغيرة يا صديقي لنا قلبٌ صغير، نعيش بحذر بجانب الحائط، قلبنا يدقّ عاليًا من الخوف طوال اليوم. لا نقوى على رفع رؤوسنا، عيوننا مثبتة على الأرض، فكيف نتضّرع إلى الله وهو في الأعلى؟ هل هو مثلنا ينظر الى الأرض، هل هو مكسور وخائف...

يا الله هل تعرفني؟! أنا الحشرة رقم... حتى رقمي امّحى !!..

وحتى لو ذهبتُ إلى الحكومة وتظاهرت وعُذّبت وسُجنت، لن يتغيّر شيء للأسف.

من سيغيّر سائق الحافلة الّذي يظنّ نفسه يسوق البوغاتي. من سيغيّر ذلك المسافر الّذي يدهس الجميع ليتّجه إلى نقاوس[7] ومن سيغيّر نقاوس؟!

من سيغيّر مدّعي الإيمان الّذي يدّعي أنّ التغيير هو التمسّك بحبل الله الّذي يشنقون به الآخرين.

7- مدينة جزائرية مشهورة بزراعة المشمش.

لن أشارك، أكره أن اكون أرنب سباق أو أستخدم كوقود لآلة ما. أنا صديق السلاحف. أتعرف يا صديقي أنّي لا أستطيع أن أنزل رأسي إلى الأرض كي أربط حذائي. رأسي يكاد أن ينشطر إلى نصفين، أنا متعب و مرهق. كُسِرت ذراع النظام الّذي يستمني بها بانتظام وأنا مثله. شبه رجل، ذراعه اليمين مشلولة من كثرة الاستمناء. سألتني قبلًا أذا كنت أبنّط. وها هي الإجابة.

أريد النوم، أنتَ لا تفهم شيئًا يا حسّان ، أنت منحوس وفأل شر.
ربما الزطلة هي الحل الوحيد، لماذا لا تزطل يا منحوس!!
أكملَ دون أن يترك لي فرصة لإعطاء رأيي..

اليوم عيد يمّا ديهيا ملكتنا وقدوتنا. هل تعرفها! قال لي أبي يجب أن نتظاهر لكرامتها، لأنّ الجزائر لن تتحرّر إلّا بعون الأمازيغ. فهم السكان الأصليون: هكذا كان أبي أبو مجيد يخاطب عنزته وهو يحلبها، وأنا مرتم على بساط ممتد على عشب حار ،تكاد مؤخرتي أن تحترق فوقه ،أتناولَ كوبًا من الحليب الطازج.

سألت أبي: أبوي لماذا أنا لا أعرف يوم عيد ميلادي؟ هاهاها

نظَرَ إليَّ كأنه لم يسمعني وأكمل حلب عنزته والتكلّم إليها عن تاريخ الأمازيغ والمظاهرات والوضع الحالي...

أتعرف يا حسّان أنّ ابن خالي لا يملك بطاقة تعريف، ولد ولم يسجّله والداه كالكثيرين هنا. إذن أنّه ليس مواطنًا جزائريًا.

لماذا سيتظاهر هذا الأحمق؟!! كما أنّه سقط وحصل له خللٌ في دماغه. أحيانًا يحفر حفرًا للأشجار، هذا هو عمله. هاها

أنا وغيره لا نعرف أعياد ميلادنا. لم نرتق إلى حلم أن يعترف بنا أحدٌ. لسنا أبناء مامي وبابي مثلك. حيث تقيمون أعراسًا وولائم عندما يخلق أحدكم وتسجّلون تاريخ الميلاد، نحن نريد أن نخفي أعياد ميلادنا.

اذهب واسألْ العاملات في بيوتكم من سيريلانكا وأثيوبيا وغيرها من البلاد المنكوحة. هل يعرفن يوم مولدهنّ!!! حتى أسماؤهن تلفظونها خطأ. لا وقت لديكم لهذا الهراء. كم أنتم أنانيون ومتغطرسون. تظنون أن الوجود ظهر لأجلكم. ستموتون أنتم وأمنياتكم الدنيئة وسيبقى الكون خالدًا. تكاد رائحة أحلامكم المتعفّنة تصرع المجرات الأخرى.

(12)

في هذه اللّيلة رأيتُ أحلامًا غريبة، صرتُ أهذي بآلاف الأسماء والوجوه. لا أدري إن كانت حرارتي قد ارتفَعَت في الليل أو أنّها حمى اليأس من واقع يلبسني ولا يشبهني. هل أنا فعلًا حسّان الرجل الخجول الّذي كان يكتب الشعر الرومانسي ويلقي القصائد على منابر الندوات الثقافيّة. كيف أصبحت أميّ الأحاسيس والمشاعر والأخلاق.

لم أكن أقوى على قتل ذبابة. ذبابة يا الله.... يا الله هل تسمعني؟

ولو انتهت الحرب في سوريا، ماذا سأكسب!!! ماذا سنكسب وقد خسرنا كلّ شيء.

هذا المجيد يخضّ داخلي بكلماته غير المفهومة وغير المنطقية يقولها وهو في دنيا ثانية.

"عائلة ميسورة" يردّد على مسمعي واصفًا حالتي.

يظنّني الولد المغنج، هو يحسدني ويحتقرني، يظنني معلّمًا ناجحًا وانا أحسده وأتمنى أن أعيش حياة موازية لحياتي هذه، أكون فيها أنا. كما يفعل هو. هل أصبح الشباب العربي كله يعيش انفصامًا! له حياتان وشخصيتان وقلبان. هل تزاوج كل عضو منه فأنجب مسخًا مشوهًا هو الأنا التي نراها الآن!!؟

حلمتُ أنّي أقبّل مجيدا قبلة طويلة في مدينة زجاجية... كنّا نتمشى، نزل مجيد من الرصيف إلى الطريق، وجد الكثير من الخضار يشبه البطاطا لا أعرف اسمه. بدأ يجمع ويجمع ويسبقني بخطواتٍ مستعجلة حتى امتلأت جيوبه.

صار يركض وانا ألحقه وحبّات الخضار تتسرّب إلى الأرض.

كسر الزجاج متظاهرون من كل الأعمار، عرفتُ من بينهم أصدقاءه عبجي وعمّار والصّالح وذوي الكراسي المتحركة الّذين لمحتهم في التلفاز في المظاهرات، صاحوا بنا بعد أن أمسكوا حبات البطاطا: نريد هذا للكسكس...

هجموا على مجيد وضربوه، أغمي عليه، بدأتُ أرشقهم بها ثم أدرتُ ظهري للعالم، وخرجتُ من المدينة دون أن أخدش بجرح.

استفقتُ هذا الصباح وبقعة دم كبيرة تملأ المخدة، يبدو أن دم "ضحيّتي" قد سال من ذاكرتي... مجدّدًا.

الفصل الثاني

(I)

- يا المثروك[8] المنكوح، الحقني...

تبعتُ مجيد بكسل هازًا ذيلي يمينًا وشمالًا.

رأيته يحمل صناديق المشمش واحداً تلو الآخر ويحمّلها في الشاحنة الصغيرة لينقلها إلى المدينة كي يبيعها.

قطرات العرق تتصبّب من وجهه الأسمر الّذي يشبه وجه الغراب.

منذ الصباح وهو يسقي شجرات المشمش الثلاث عشرة المتبقّيات في البستان جنب دارهم. يقطف بعدها ثمرات المشمش ويوضّبها في صناديق.

كان ينهرني مرارًا عندما أقترب منها لأشمّها، قائلًا:

- ستسمّمها يا منحوس! لا تأكل من الحبّات الخشنة على واجهة الصندوق. تعبتُ وأنا أوزّعها من الأشهى للأسوأ في القعر. تعلّمت هذا التوزيع من سياسيينا يا منكوح. هل أصبحت نباتيًا؟ هاهاهاها

ما إن يبدأ قهقهته المتقطعة حتّى أكاد لا أرى بوجهي إلّا أسنانًا صفراء مسوسة، ورائحة دخان كريهة.

فأتراجع الى الوراء، وأنبح بصوتٍ خفيف كي أنهره عن التّراجع.

8- المثروك: الّذي لا قيمة له (بالأمازيغيّة).

- هيا تحرّك، ألمْ تتعب نومًا نهارًا وليلًا كأنك في غيبوبة؟ افعل شيئًا مفيدًا!!

هل تحوّلتَ إلى قطٍ ضخم نباتي كقطنا الأسود الثرثار، لا تجيد حتّى صيد الفئران.

تعال، انا أحبكَ، أنتَ صديقي الوحيد، حافظ أسراري، هاهاها

(2)

الجميع هنا يريد التخلّص مني، فأنا المذموم المثروك. هل أنا مذموم في الإسلام وخارجه لأنّي خارج عن القطيع؟ يريدون قتلي أنا أعرف، يتمنون أن أموت وحدي بلا صوت، بلا أثر.

نفدت حيلي بالتمثيل أنّي أقوم بدوري منذ فترة طويلة... لم يعد ينفع أن أتظاهر بالنباح عندما يطلق أبو مجيد قطيعه فأتبعه ومجيد.... راسمًا على وجهي سحنة الأسد الشرس... وما إن نصل إلى الجبل... أختفي بين الأشجار... كي أنام مجددًا...

لا أذكر منذ متى تخلّيتُ عن دوري، لا أذكر حتّى ماذا كنتُ قبله، لا أذكر شيئًا. أخجل من فقداني لذاكرتي. أحيانًا أتخيّل نفسي زعيم القطط المشرّدة هنا، زعيم البيت والقطيع. أشعر أنّي كالأسد، كديك مجيد الّذي ينفخ صدره أمام المرايا المتكسّرة، وما إن يلاحقني أبو مجيد بعصاه الغليظة كلما رجعنا من الجبل لأنّي تواريتُ عن الأنظار ويبدأ بضربي، حتى أحيانًا يضربني بلا سبب فقط لأن مزاجه سيىء هذا اليوم.

كلما بدأ بضربي، أبدأ بالنباح خفيفًا وأئن كطفلٍ مشرد، ثم يبدو أن نباحي اختفى، علق صوتي فأموء نائمًا على ظهري، بارزًا قضيبي لهم. أسمعهم يضحكون علي ويهزؤون بي. حتّى يتدخل مجيد مدافعًا عني:

اتركوه وشأنه، أنّه كلب فداء، ليس ذنبه أنّه خلق على هذه البقعة المنكوحة من العالم، ليس ذنبه أنّ لا أصل ولا فصل له. أنّه بلا اسم وبلا دور. أنّ سيده راعٍ بسيط لا يعرف القراءة والكتابة. أنّه فشل مرارًا وتكرارًا أن يكون مثل أصدقائه، الكلاب، أبناء المامي والبابي.

كان سعيدًا قبل أن تهاجمه مجموعة من الذئاب الكاسرة، في هذا النهار الكئيب. كان يقفز من السعادة منذ الصباح، ويسير قبلنا جميعًا لحراسة القطيع، مرّغوه في التراب، اغتصبوه، استهزؤوا به، أفهموه انهم ليسوا هنا من أجله، بل من أجل الخرفان الطريّة اللّذيذة.

أذلّوه مذكّرينه أنّه يلهث وراء بقايا الطعام، حاول أن يدافع عن نفسه لكنّهم الأقوى.

قدّم نفسه فداء للقطيع.

لم يعد يصلح لشيء ولا حتى للنباح... "

(3)

جاء اللّيل، الوقت المفضّل لي، حيث الهدوء والأسرار والأحلام، حيث أتحوّل الى "شيخ القبيلة"، الجميع ينام إلّا أنا ومجيد.

لحقتُ به إلى "مكتبنا" كما يسمّيه بين شجرة الصبّار واللّيمون قرب الاسطبل.

أخذتُ مكاني المعتاد عند أرجل "الحمارة".

أحرسها وتحرسني، الحمام إلى جانبنا يأكل فتات الخبز. القطط السبع اقتربت مني تلعب بذيلي. لا يهمّني، لن تؤذيني.

وحتّى إن هجموا لن يكونوا بقوّة عضّة ذئب.

أرخيتُ نفسي على التراب مستمتعًا بالهواء العليل والذباب الّذي يطير فوق رأسي وذنبي.

أنظرُ إلى مجيد قبالتي جالسًا في مكانه المعتاد على طوبة إسمنتيّة. إلى جانبه سيجارتان. واحدة له وواحدة لحبيبته الّتي تأتي بعد أول سيجارة.

بعد وقت قصير، سأصبح كلّ الكائنات الموجودة وغير الموجودة في حياته. بسبب كرهه، ينفث في وجهي كلّ الدخان، واضعًا رجله عليّ أحيانًا كمسند له، لا يهمّه أنّي بآخر أيّامي. رائحة هذا الدخّان تجعلني أرتخي ،وأشعر بأنّ أعصابي المشدودة قد ارتاحت. بعد أن أزطل أصرخ في وجهه بصوت أجش: "عندما أكبر سأصبح أسدًا وأبلعك"

سيجارتان هما تذكرتا سفر عبر الأزمان، نلغي الزمكان، نحسّ أنّنا فقدنا ذاكرة "الهبهب" أو "عَوعَو" وننسى أنّ لا ذاكرة لنا ولا ماضي.... مرّة شرح لي مجيد أنّه حتّى لغة الكلاب واسم ذاكرتها يتفاوت حسب البلد...

أرى صورة مجيد مهزوزة بالأسود والأبيض،

أقتربُ منه فقط عندما يناديني كي آكل ما تبقّى من الطعام أو أسمع لموسيقى يحبّها.

أحيانًا يحدّثني عن حبيبته الوهمية أوعن حسّان الشخص المحظوظ الّذي يتمنّى أن يكون مكانه: إنسانًا مثقفًا ومتعلّمًا وميسورًا، تحبّه الفتيات. يخبرني تارةً كم يحقد عليه ويتمنّى له الموت وتارةً أخرى كم يفرحه أنّ حسّان يصغي إلى حكاياته.

بعدها أرجع إلى مكاني بهدوء وخفة كي لا يشعر بوجودي فيطردني إلى مكانٍ آخر كما فعل مرّة. لا أغضبه مهما سكر وزطل وبكى وضحك وأهانني ووبّخني. لا أقول شيئًا. أتقلّص ككرةٍ صغيرة مرمية على الرمال. كي لا يشعر أحد بوجودي.

أصدقاء مجيد هم أصدقائي، رجال النار الّذين يجتمعون فقط في الشّتاء كي لا يموتوا ببرده وحدهم.

بؤساء، أحياء اموات. لم يكن لهم وجود منذ الأزل، لا يحلمون بشيء ولا يحملون خطيئة. لا يحبّون أحدًا ولا أحد يحبّهم فالحبّ لا يجوز في قوانين البؤساء، هكذا يقول مجيد. كذلك البكاء ممنوع، عندما ماتت عمّة مجيد الأسبوع الماضي دخلنا إلى المقبرة، لم يرفع أحد يده للدعاء، لا بكاء لا نحيب. الناس بعضهم ينظّف القبور وبعضهم الآخر ينظر للفراغ. لا أحد يبكي.

ولكنّنا بكينا أنا ومجيد، هذه الليلة المشؤومة، عندما مات صديقنا عبجي. أتذكّر كيف انهار مجيد هنا في اللّيل عندما سمع الخبر. شعر بتأنيب الضمير. قال لي يومها: "أنا أتحمّل جزءًا من المسؤوليّة على هذه الجريمة، لو أنّي قدمت له قطعة لحم كلّ يوم، لما ذهب إلى المدينة المجاورة مشيًا على الأقدام ودهسته شاحنة.

نعم عبجي المجنون الّذي يلبس ملابس نسائية كلّ الوقت مات من أجل قطعة لحم. قالوا في الضيعة عنه أنّ شهوته لم ترحمه.

جلال أيضًا صديقنا موجودٌ في السجن الآن لأنّه دخل إلى مصلّى النساء خلال خطبة الجمعة وهجم على امرأة يريد اغتصابها وأخرج قضيبه وتبول في المسجد وهرب.

عندما أمسكوه قال لهم إنّه من شدة الإيمان والخشوع، حسب نفسه في الجنة محاطًا بحور العين. فجرّوه إلى السجن وتحوّل اسمه في الضيعة من "جلال المجنون" إلى "الفيلسوف الكافر".

عمّار ترك أكل التراب واستعاض عنه بالصّابون ليغسل خطاياه كما كان يقول لنا. لا زال لا يأكل إلّا ما يجلبه له مجيد، يثق به. يقول له أنّه الوحيد الّذي لا يشمئز منه، وأنا أيضًا يحبني، يربّت عليّ كلما جاء إلى هنا ويحذّرني من المقرّبين لأنّهم غدّارون. أنبحُ عندما أسمع كلامه بأسى.

أخذوه الى المستشفى لأنّه تسمّم من الصابون والكوكاكولا. هو مقتنع أنّه أكل معدته وأنّها تحوّلت إلى صندوقٍ صدئ، فيجب عليه هضمه وتنظيفه من وسخ الأرض.

ويبقى مجيد من رجال النار حرًّا طليقًا ينام كلّ النهار. ها هو الآن قبالتي يسمع معزوفة على القيثارة، يدخن سيجارتين نافثًا الدخان في

وجهي ثم يتوقّف، يرجع رأسه إلى الوراء، ينظر حوله ليتأكّد أنّ لا أحد هنا إلّا أنا، قططه، الديك، الحمارة، الحمام، السلاحف، وشجر الزيتون، والمشمش والصبّار، وأرواح رجال النار تحوم حولنا.

فقط نحن.... وهو.

يمدّ يده داخل بنطاله و"يبنّط". أحيانًا يتفوّه كلماتٍ غير مفهومة، يتمتم، يتأوّه.

كلّ اللّيل تظلّ يده داخل بنطاله، بعدها ينتفض من مكانه صارخًا ومردّدًا أسماء لا أعرفها.

تلتقي عيوننا بنظرات هائمة، حالمة، خائفة.

بعدها يبدأ مجيد بالصراخ عليّ ناعتًا إياي بأبشع المفردات. ثمّ يبدأ بالبكاء فالضحك. يترجّاني بعدها أن لا أفشي أسراره وأنّه سيحزن جدًا إن ضحكتُ عليه في سرّي على كل ما يشاركني به من أسرار. يخبرني بأنّه عالمٌ فيزيائي وأنّ حلمه أن تبقى أحلامه سرمدية لا نهاية لها. ثم يصرخ: أنا الجحيم والعذاب والشر والحقد.

يقول لي: أنتَ جرعة سعادتي يا المثروك. أنت محظوظ أكثر منّي لأنّك تعيش أقلّ مني سنينًا.

تعال.... ثم يضع رجله على رأسي ويأمرني أن أنام تحت رجليه.

ننام الاثنان هكذا، ما تبقّى من اللّيل. أستفيق عدة مرات في ذعر. أسمع أصواتًا غريبة وصفيرًا حادًا يطنُّ في أذني. أرى كوابيس والكثير من الظلام.

هل الكلاب المذمومة تحلم!! هل من لا ذاكرة ولا ماضي له يحلم. مرة حلمتُ أنّ الكلبة التي أحببتها، اغتصبها رجل يشبه عبجي وجلال

وعمار، ربما مجيد. الكثير من الّذين يشبهون مجيد. قامت هي بالالتصاق به مستمتعةً كما تفعل الكلبات ورفضَتْ أن تطلقه. فعلق قضيبه داخلها. نقلوها إلى المستشفى فلم يستطيعوا استئصالها إلّا بعملية قيصرية.

ثم حلمتُ برجل اغتصب تمساحًا كبيرًا وعندما سألوه ما السبب قال: هذا التمساح يظنّ أنّه أقوى مني.

ثم حلمتُ أنّي عضضتُ مجموعة الذئاب الّتي هاجمتني واحدًا تلو الآخر. وزأرتُ فيها عاليًا. فهربَت بعيدًا جدًا، وصفّق لي الخراف والتيس الأسود وأبو مجيد ومجيد وعبجي وجلال وعمّار. صفّق لي الجميع.

(4)

فتحتُ عينيّ هذه اللّيلة في الظلام الدامس. رأيتُ مجيد وراء شجرة الزيتون مرخيًا بنطاله إلى ركبتيه، يحاول إدخال قضيبه داخل التيس الأسود السمين، هذا التيس الّذي استلفه أبو مجيد لينيك به بعض الماعز.

مجيد يحكم عليه بيديه ويحاول إدخال قضيبه بالقوّة. التيس يهرب ويجري بسرعة. مجيد يشتمه عاليًا ويصفه بالفاسق المثلي وأنّه أصلع بلا قرون. يرمي الحجارة عليه.

إلى جانبهما أفعى سوداء، رأسها إلى الأعلى، هي الشاهد على ما جرى.. وأنا، رأسي في التراب.

(5)

الديك المنتوف الّذي ضمّه مجيد إلى "مجموعته" لا يصيح عند شروق الشمس.

أراقب من بعيد هذا الديك الّذي أمسى أسود من كثرة الغبار والتراب من الرياح الصحراوية الّتي تهبّ من فترة لفترة والإهمال.

لا أحد يعتني به. كسب محبّتي هذا الدّيك لأنّه لا يطارد الدجاجات. ولا يدّعي أنّه يحبّني. هو بشعٌ، متّسخٌ ونحيف.

عندما يموت ستتقاسمه القطط. وعندما تموت القطط سآكلها وحدي. وعندما أموت من سيتقاسمني؟

ربّما رئيس الجمهورية!! يريد إبادتي أنا والقطيع كي يبقى هو الرئيس.

لكنّي لم أشارك في المظاهرات ضدّه. فلم يكن لديّ حسٌّ كي أهتف عاليًا.

وجميع أصدقائي لم يشاركوا. هم في السجن أو في المستشفيات أو في المصحّات العقلية أو على الطرقات نائمون.

الحلّ الوحيد حسب مجيد هو العنف، تكسير السجون والمستشفيات والمصحّات وإخراج الجميع إلى الشّارع.

لن يعيد إلينا انتماءنا وهويتنا إلّا هؤلاء، الّذين عانوا وعانوا. الّذين لا يحسب لهم المجتمع حسابًا.

أحسّ بعطش شديد ورياح الصحراء تلفحني وأنا أفكّر. أشتاق إلى

المياه الباردة الّتي كنّا نرمي أنفسنا بها أنا ومجيد. أحتاج إلى الكثير من المياه المثلّجة لتبريد النار الّتي تخرج من رأسي عند كل نوبة. لم أعد أستطيع السباحة حسب ما قاله الطبيب لمجيد آخر مرة أخذني إليه. فقد أصابُ بنوبةٍ من نوباتي وأغرق.

لم أستطع أن أصرخ أنّي أتمنّى أن يبلعني البحر.

لماذا أبقى على قيد الحياة وليس هناك من سيبكي عليّ إن اختفيت.

عرفتُ نهايتي عندما صرخ بي يومًا مجيد ،عندما رآني آكل براز الحمام والحمارة.

كلّ الفضلات تتشابه لمن فقدوا حاسّة الشم.

كيف لم يعرف هذا الطبيب أنّه وجب عليه أن يطلب منهم قتلي برصاصة. كلبٌ دون حاسّة شم. هاهاها قال الطبيب عادي ليست مشكلة.

تمنّيتُ عندها أن يفقد هو حاسة الشمّ كي لا يشمّ الاحتباس الحقدي الّذي سيطر على الغرفة.

تبادلنا النظرات أنا، هو ومجيد.

وقتها قال مجيد للطبيب: ما رأيك أن يشنق نفسه كي يشفى! أحدهم فعل هذا.مرضه لا حلّ له إلّا الموت.

الرصاصة، رصاصة الرحمة. لمن يتركها مجيد؟ تبدّلت رائحة الحياة دون أن أتبدّل معها، لا زلتُ عالقًا في البراز، أو فضلات البراز الّتي أقتات منها.

لا تنهرني يا مجيد، ولا تبك عليّ. فأنا جبان، لن أشنق نفسي.

سأضحك وأبكي وأزطل، وأنام. وأحلم أنّي أنتفض كلما جاءت النوبة.

في الصباح التّالي، رأيتُ مجيد يتوجّه في خطى ثابتة، عاريًا، إلى أعلى الجبل.

سمعته يصرخ عاليًا جدًّا:

"أنا جبان، لن أشنق نفسي. سأضحك وأبكي وأزطل، وأنام. وأحلم أنّي أنتفض كلّما جاءت النّوبة".

صدى كلماته هزّ أشجار المشمش والزّيتون والتّين. هزّ جبل الأوراس.

أكمل بصوتٍ أعلى: أنا حاقد ومذموم. أحسّ بعطشٍ قاتل، كأنّي في الصحراء. دائمًا أعطش لمجرّد النّظر إلى الوجوه الصحراويّة.

كان يتوجّه بخطابه لي، أنا، قططه السبع، الدّيك الأسود. رجال النار كلّهم خرجوا من أوكارهم من هول صراخ مجيد وهرعوا لسماع خطاب الزعيم، "رئيس القبيلة"، الّذي يصرخ عاليًا من أعلى الجبل، من قمة الرفاعة*.

قطيع الماعز والتّيس الأسود اقتربوا على استحياء.

إنّه خطاب القرن. الملايين بدأت تزحف إلى رأس مجيد. رأيته يضع يديه على أذنيه كمن يريد أن يمنع أصواتًا تزعجه.

صفير الرياح صار يعلو و يهزّنا جميعًا. بدأتُ بالنباح عاليًا.

اقتربتُ من مجيد، ألحس جبينه المبلّل بالعرق كي أهدّئ من روعه.

بدأ مجيد بالنّحيب والكلّ من حوله يضحك عاليًا. لا يفقهون ماذا يجري. وأنا أقفز بأرضي وأحرّك ذنبي يمينًا ويسارًا كي أعلمهم أنّ الخطر آتٍ. وهم يضحكون.

قطع هذا الجو صوت مجيد صارخًا بنا:

الضحك مسموح يا إخوان، لكن الاستهزاء ممنوع، هيّا صلّوا على أنفسكم، أنتم من لا اسم لكم. سأعدّ لكم عدد " الاستغفار" الّذي تفوهتم به منذ أن خلقتم ، كذلك عدد "اللّايكات" على المنشورات الإسلاميّة الّذي

وضعتموه، وكم مرّة " يلعن الشيطان" و" صلّ على محمد" تلفّظتم . وعلى أساسها أتّخذُ قراري بشأن كلّ منكم...

زادت وتيرة الضّحك، عبجي بفستانه ومكياجه الفاقع نام على ظهره من الضّحك.

عمّار جالس تحت شجرة زيتون يضع التراب في فمه ويضحك مفلتًا حبّات التّراب من بين أسنانه.

أمّا جلال "الفيلسوف الكافر" فسجد على ركبتيه كمن يقيم الصلاة. رفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى مجيد بنظراتٍ غريبة متوجّسة تسبق مخططًا ما.

أكمل مجيد:

أيّها القوم الوقورون، لا عليكم لن ألقاكم بعد خطابي هذا. هذ. الخطاب هو أشبه بنوبة دفنتها في صندوق عالمي الدّاخلي. أردتُ أن أشارككم بها وأوزّع عليكم بعضًا من حكمتي. أنا الآن الأكثر هرمًا من بينكم. عمري تسعون سنة ، هذه الأيّام ،كلّ ليلة أكبرُ فيها ثلاث سنوات .

أنا حرٌّ طليق، أمازيغي بطل.

رفضتُ السلسلة من أجل وجبة غداء. أنا منهك مثلكم، استغرقتُ عمري للوصول إلى هذه القمّة. ولكن الأعمار لا تهمّنا. نحن هنا لنتطوّع بأعمارنا. لا فرق بين عشريني أو ثلاثيني أو خمسيني إلّا في تواريخ الميلاد. ونحن لا نعرف تاريخ ميلادنا.

أردتُ أن أعلمكم أن لا تصدّقوا ما يقال.. عن الخير والشر. حتّى هتلر هناك رواية تقول أنّه لم يقتل ولم يحرق بل هو حيّ عند ربّه لا يرزق. سيخرج من بافاريا ومعه مئات المازرفاكر المصابين بالهستيريا مثله

لينيكوا كلّ بلاد المعمورة ويقتلوا الدجال الماسوني المخنّث الّذي يعيش في سوريا ويعمل مع داعش. اسمه حسّان.

يتخفّى "المنكوح" تحت رداء الشعراء والأساتذة والمثقّفين. ولكنّه قاتل ومخصي..

يجب إعدامه كي يصبح عبرةً لمن اعتبر!! ولا أحد يعتبر ! لهذا اجتمعتُ بكم كي نتّحد

وننقذ هذه الأمّة...

توقّفَ عند خطابه قافزًا بأرضه واضعًا يديه على خصيته:

قرصتني نملة هاهاها. لا يهمّ سأكمل.

لا تقلّدوا الآخرين. فالتقليد غباء والغباء ينتشر أسرع من الوباء، لذلك اخترتُ الوحدة والانعزال واخترتكم لكي تكونوا شعبي المختار....هاهاها

في نهاية الحفل ستُوزّع الأوسمة ونأكل الكسكس الغارق بمرق اللّحم ونذبح الشاة والخراف. ونأكل بشهية.

هل تعرفون يا سادة من أنا؟

أنا هذا الصبي الصّغير الّذي ما زال يبكي في حجر أمّه ويفرح عندما يرى القطط ، ويلعب مع الكلاب دون أن يؤذيهم.

هذا الصّبي الّذي يوسّخ رجليه ويديه في الطّين كما يفعل صديقي الدّيك الأسود.

(يشير إلى الدّيك الهزيل الّذي كان يخدش التّراب بمنقاره).

مرّة اشترى لي والدي حذاءً بثمن قارورة الخمر الّتي شربتُها قبل أن أصل إلى هنا الليلة. كنتُ في الخامس ابتدائي. فرحتُ فرحًا شديدًا، سهرتُ مع الحذاء، كان لونه أحمر لامعًا.

وفي الصّباح لبسته هو وبدلة رياضية خضراء. وذهبتُ إلى المدرسة.

معلّمة الفرنسيّة نادتني كي أنهض، أوقفتني أمام الجميع وقالت كلمة واحدة: متخلّف.

ضحك الجميع وقال أحدهم: يشبه البطّيخة بالأخضر والأحمر.

تغيرّتُ يا سادة، نعم. نسيتُ كلّ شيء، لا إنسانية، لا مساواة، لا حواس ولا ذاكرة.

أنتم (مشيراً إليّ وإلى القطط والماعز ورجال النار).

أنتم أفضل حالًا مني. فأنا لا أتذكّر من ماضي غير كلمة متخلّف.

أفشل وأندم، أتحسّر وأتعثّر. أستغرب وأؤمن أنّي مظلوم. ماذا فعلت! من قتلتُ ومن هجرتُ ومن ظلمتُ؟!

لم أنل شيئًا، ولم أفز بشيء. أول أحلامي غير المحقّقة كانت درّاجة هوائيّة. لم أشترها وأنا طفل. كبرتُ وأصبح حلمي سيّارة.

قال لي الطّبيب ذاك اليوم: من هم بحالتك لا يقودون، ينامون على الأرض.

نزع بهذه الجملة فكرة الدّراجة والسيّارة من جذورها.

وحتى السباحة ممنوعة، كي لا تصاب بنوبة داخل البحر.

اقتربتُ من مجيد وجثوتُ تحت رجليه ونبحتُ نباحًا خافتًا لأؤكّد للجميع أنّي كنتُ شاهدًا على ما يقول.

وضع مجيد رجله على بطني واليد الثانية على صدري من جهة القلب.

حضنني مكملًا حديثه لي فقط:

هل سبق أن شعرتَ أنّ هذا الجسد هو امتداد لذاكرة عششَت بين

خلاياك. وأنّ هذا الملمس تعرفه من الماضي. وهذه الرائحة تعطيك الأمان وتجتاح كل حروبك النفسيّة الصغيرة المتوحشة. هل سبق أن بكيتَ لأنّك كنتَ تظنّ نفسك وحيدًا ثم تأكدتَ أنك ستبقى.

هل سبق أن شعرتَ أ نّك بلا مشاعر وأنّك بئر هواجس عميقة.

هل سبق أن نخر الذنب والحقد العظام وكرهتَ من حولك وتمنيتَ لهم جميع الأمراض لأنّك تمقت نفسك؟

شعرتُ بأطرافي تتثلّج من نظرات مجيد مباشرة في عيني ورائحة أنفاسه الّتي تفوح منها راحة الخمر والسيجارة.

بدأتُ أرجف من الخوف. أخرجتُ لساني وبدأت بلعق وجه مجيد. انتابتني لحظة من الذهول. لا أعرف من أنا. تغيّر كل شيء. حتى رائحة مجيد تغيّرت.صرتُ أشاهد حركات وجهه كفيلم قصير يمرّ بسرعة. أحاول أن أتخيّله مع تجاعيد وشعر شائب، دون أسنان. تزحف الأفكار السوداء الى رأسي كالأفاعي ذات الأجراس. تصدعني كلّما أتحرك. يعلو رنينها.

كل شيء بات أسود وساكنًا. إلّا هي. تتحرّك في رأسي الصغير بقوة أوركيسترا كاملة.

دفنتُ رأسي تحت التراب كي يذهب الصوت. وتوقّف قلبي عن الخفقان كأفعى سامة مقتولة. تنتظر من يقضي على ذنْبها وعلى أذنابها أيضًا.

- "انهض ايها المثروك!!"

أيقظَني مجدّدًا صوت مجيد من هواجسي، مكملًا خطابه بصوته الجهوري، واضعًا يده على رأسه. فعلقت في كفّ يده خصلٌ كثيفة من شعره.

- "أنا مصاب بمرض العظماء.

وأخيراً أنا عظيم، أتمنّى لكم جميعًا الإصابة بكل الأمراض، خاصّة هذا المرض العظيم . أنا اليوم هو القائد المقدومي، الاسكندر الأكبر، ابن الملك فيليب الثاني، تلميذ أرسطو.

تعلمتُ من أبي فن رعي الأغنام والهروب من الذئاب. هناك أرواح شريرة تسكنني. الغضب الإلهي يحيط بي وبكل من يقترب مني.

كلّ ثروة الجزائر النفطية لن تنقذني من هذا "المرض المقدس".

أحلم كل ليلة نفس الحلم وهو أنّي أسبح في بركة صغيرة مع سمك القرش، في بحر لا متناهٍ. وتلحق بي آلة حصاد بسرعة فائقة.

أستفيق مذعورًا فأجد أن يدي ورجليّ متعاكستين الواحدة على الأخرى على شكل صليب. أنا مصلوب على خشبة هذا العمر.

لم أعد أسقط منذ أن بدأتُ النوم على الأرض.

أيّها الشعب العظيم ، لا تخافوا لن أسقط أمامكم.

نطالب هذا القطيع المسحوق بالخروج إلى الشارع ،والمطالبة بحقّه بالكمية التاريخية من الكوكايين التي دخلت بلادنا! سبعة قناطير لو توضع في جبال الأوراس، عند أول ريح صحراويّة قويّة ،ستزطل إفريقيا بأكملها وتنسى مشاكلها وتصبح قويّة.

علا التصفيق والصفير من رجال النار وجحظت عيون جميع الحيوانات مجتمعةً.

البلبل يغني.. يا له من غروب أسطوري.

أكمل مجيد:

لطالما أحببتكم. أيمكن أنّي أخذتُ العدوى منكم؟ في ثقافتنا المجانين يكرهون بعضهم. إذن أؤكد لكم أنّي لستُ مجنونًا.

أنا فقط محطّمٌ ،ومستسلمٌ ولكنّي عظيم.

فقد حصلتُ على مبررٍ شرعيٍّ لفشلي. لم أعد أستطيع القيام بشيء.

فتاة أحلامي أصبحت حبّة حمراء أتناولها كل يوم، أنام عشرين ساعة. وأستفيق نعسًا وفاشلًا. أفكّر في أنثى، أمدّ أصبعي لها، نحلة في مستنقعٍ موحلٍ بدا لها سكرٌ. علقَتْ به. أمدّ أصبعي منقذًا. تستريح وتستعيد بريق جناحيها. تلسعني لسعةً جبانةً وتلوذ بالفرار لتضع عسلها على أصبع آخر نتنة برائحة المؤخرات النسائية.

لم أعد أراهن على الحب يا سادة. أراهن على الحقد والكراهية والانتقام. أشعر باكتفاء ذاتي، يعيش كونٌ داخلي. أستغني عن الجميع وأحتويهم جميعًا.

نظر بعدها مجيد نظرةً مخيفةً إلينا ، وعيونه تقدح شررًا، مكملًا بعصبيّة واضحة:

لماذا تمدّون لي ألسنتكم يا أولاد القحبة لماذا؟ ألا تصدّقون أنّي لستُ مجنونًا! ما ألعنكم. سأمدّ لساني لهذه المرأة المتبرّجة القبيحة التي تنظر إليّ بفجور.

(يشير إلى عبجي بفستانه ومكياجه الفاقع)

كم أكرهكَ ! لماذا تضحك يا ابن الكلب. ومن هذا المهرّج الّذي يقوم بحركات بهلوانية إلى جانبك؟! (يشير الى جلال)

سأسرقُ منه أنفه الأحمر البلاستيكي وأضعه على أنفي. هاهاها

أنتم حشرات غريبة. (يحرّك أصابعه بحركة دائرية كمن يرسم أشكالًا

في الهواء، ثمّ يحرّك يديه إلى الأمام، كمن يريد أن يلتقط ذبابة واحدة تضايقه.)

صرتُ أقفز إلى جانبه وأنبح.

أهزّ ذيلي كي أذكّره أنّي إلى جانبه وأطمئنه. لكنه لم يرني وأكمل:

- سأرقص الآن، هيّا يا ديكي، أسمعنا صياحك. هيا يا قططي عانقنني. أنا وحيد... هاهاها لستُ مجنونًا، لستُ مجنونًا...

يعلو بعدها صوت مجيد الحزين بأغنية لطالما ردّدها في سهراتنا الطّويلة:

اووو اووو اووو

ما رانيش قادر نحمل هاذ لعذاب والزمان يطول عليا

Impass لمعيش هاديا ونقول خلاص

والغلطة نعاود نديرها 1000 fois

هذه المعيشة فراغ

خليني نروح قلبي مجروح

خليني نروح في بابور اللوح[9]

أغمي بعدها على مجيد...

9- أغنية بابور اللوح:

لستُ قادرًا أن أتحمّل هذا العذاب والزمن يطول عليّ.

أتجاوز هذه المعيشة وأقول انتهى والخطأ أعيده ألف مرة، هذه المعيشة فراغ.

دعني أهاجر قلبي مجروح دعني أذهب في سفينة من خشب...

خليني نروح في بابور اللوح وجيبو البياري وزيدو الصاعقة

أهازيج تُردد في كل مسيرة سلمية للمطالبة بالتغيير، بعد أن كانت الملاعب هي المنبر الوحيد للهتاف بهذه الأغاني الرياضية التي تحمل دلالات اجتماعية وسياسية قوية، وأظهرت تقدما في الوعي لدى شريحة واسعة من الشباب، لكن عدواها انتقلت بشكل لافت، إلى نخبة المجتمع خلال الحراك الشعبي في ظاهرة يرجعها المختصون إلى ما شكلته الملاعب على مدار عقود طويلة، من فضاء أمثل للتعبير عن الظروف المعيشية ونقل رسائل مباشرة للسلطة.

بدأنا نرشقه بالحجارة ونرمي عليه التراب من كل حدبٍ وصوبٍ. نقهقه ونبكي ونغنّي...

وأنا أنبح وأموء وأنهق.. تراشقنا بعدها فيما بيننا بالمشمش والبطاطا.

ابتعدْتُ بعدها عن الجبل دون أن أخدش ولو بجرح...

استفَقْتُ هذا الصباح وبقعة دم كبيرة تملأ حوض شرب المياه، تحت أرجل الحمارة أين أنام...

يبدو أنّ دمَ (ظلّي) قد سال من ذاكرتي... مجدّدًا...

(6)

الانتحار هو الحلّ، لن يراودك شعورٌ بالندم أو الشفقة على أحبابك الّذين يبكون، ولا بالحيرة من بعضهم الّذين سيفرحون، ولن تشعر بألم أبديّ و ستتلاشى . لن يهمّك بعد ذلك شيءٌ.. وستهزأ من أولئك الّذينَ ظنّوا أنّ التاريخ قد خلّدهم .كم بكيتُ عندما سمعتُ أمّي تقول: الله يرحمك يا مجيد..

كانت ليلة موتي. ليلة تدعو إلى الإحتفال الأسطوري، على أعلى قمة الجبل، عند الغروب، عارياً...

مع أصدقائي الحقيقيين . كان نهاراً عصيباً من المفاوضات بيني

و بين نفسي على طريقة التّنفيذ. حبلاً أم رصاصة ؟

الموتى في المقبرة حولي ينصحون بالرصاصة، أقل ألماً.

و أصحاب الحبل يعتبرون نفسهم الأكثر شجاعة.

أريد أن أموت ولا أتسبّب في موت أحد أو حزن أحد أو حقد أبديّ لأحد. أموت وحدي.

بعد موت أمّي أطالبكم بدفنها معي. كذلك أولادي الّذين لم يأتوا.

حياة جديدة ولدت بعد أوّل نوبة صرع. استفقتُ منها ، وجدتُ نفسي في عالمٍ جديدٍ له مقاييسه الخاصّة. ذهبَت بطاقة الذّاكرة الدّاخلية لجهاز عقلي، صرتُ أحفظ الأحداث ليومٍ واحد.

بعد النوم لن تعرف الأمس.

تختلط عليك الأيّام. يصبح عمرك يوماً واحداً. كهذا اليوم الأسطوري.

في أحد الأيّام، كنتُ في الماضي جالساً أمام مرآة، أنظر إلى نفسي و أقول: عندما أكبر سأشتري مرآةً لأرى فيها هذه اللحظة.

تبّاً أعلم أنّ هناك عالماً ما جميلاً خارج هذا القبر الّذي أنا فيه. لكنّي لا أريد أن أعترف لنفسي أنّه جميلٌ لكي لا يحدث لي انشطارٌ. سيفرّ عقلي ويستقر هناك ويبقى جسدي هنا ..وحيدًا ،مغبونًا ، ممّا يجعلني أضطر إلى اللّحاق به سباحةً. ولكنّي ممنوع من السباحة. قضيتُ هذا الصباح واقفاً في السّاقية . قدماي في ظلّ شجرة التّين في زمن الحضارة والتمدّن والعلمانية والإقتصاديّات الرقميّة. أسمع أحدث أخبار الإبتكارات والنظريّات و أرى نفسي في موقعٍ هامٍّ في القمّة . حيث الهواء العليل والسكون.

لو كنتُ حشرة لجرفني هذا الماء البارد.

رأسي سينشطر إلى نصفين . أحتاج ماءً بارداً كي أبلّل رأسي و أقرأ الفاتحة على روحي. أنهضُ ، أسيرُ ولا أستطيع إجابة أي شخص يعترضني وأبحث عن الماء عن الماء عن المااااااااء....

وقفتُ عند الثلّاجة المستطيلة . فتحتُ الباب ودخلتُ .لم أر شيئاً .كلّ شيءٍ أبيض. لم يكن فيها إلّا الماء الشفّاف البارد. كانت فارغة. أوه! أين دوائي وبعد تفكير عميق، وجدته في باب الثلاجة.

تناولتُ مئات الأقراص كي أشفى بسرعة بعد موتي. وشربتُ من القارورة. وبعد أن شبعت من الماء ، خرجتُ من الثلاجة ،أشعلتُ سيجارتي وبعد ثلاثة انفاس تذكرتُ أنّني لم آخذ الدواء بل شربتُ فقط الماء.

أكتبُ السطر الأول، أجده يحتاج لسطر ثانٍ. عندما أكمل الثاني يعجبني وأقرؤه. يبدو أنّه لا يمثّل ما كتبته في الأوّل. فأضيف السطر الثالث لأقوّي معنى الثاني. فتزداد الفتنة في رأسي..

"الجميع هنا يريد التخلص مني، فأنا المذموم المثروك ...هل أنا مذموم في الإسلام وخارجه لأنّي خارج عن القطيع؟ يريدون قتلي أنا أعرف، يتمنّون أن أموت وحدي بلا صوت بلا أثر."

الغريب أنّي أبكي على نفسي وأضحك لأنّني كنتُ أبكي. أنا مستسلم .

سأموت باطمئنان بعد أن حصلتُ على مبرّر شرعي لفشلي.. أتمنّى للجميع اختلالاً في تنظيمهم الكهربائي في الدّماغ ها ها .

أنا مراقَب تحت أضواءٍ قويّة تعمي نظري.

يدي اليمنى شُلّت من التبنيط، و اليسرى

أستعملها فقط للتبوّل.

لماذا لا تشحذون عليّ. حرارتي مرتفعة.

ألمٌ حادٌّ في رقبتي و رأسي و رجلَيّ.

هل الشحّاذ يبقى شحّاذاً إذا شحذ أكثر من حاجاته الأساسيّة؟ أم يصبح تاجراً؟

وأنا أكره التجّار..

ذنبي الوحيد أنّي أحبُّ السجائر والقهوة وأكل الأعراس وقبر أمّي . إلا أنّني لستُ بخير. حين أضحك في الطرقات وحدي، يتقطع قلبي وأشفق على النّاس ولا أهتم لشيء حتى لو دهستني سيّارة في الطّريق ومتت. أتمنّى فقط أن يكفّ النّاس عن التنفّس. ويعملون فقط ليبنوا الجزائر حتى تتجاوز السحاب ويراها كل العالم... هاها ها تباً لكم جميعاً.

أيّها الشعب الفضيل، أيّها القوم الوقورون.. اسمعوني جيّدا ولا تنسوا أن تتداولوا أفكاري بعد موتي.

فأنا عظيم . وصلتُ إلى القمة بمساعدتكم جميعاً.

والآن أشاهد نفسي أتدحرج إلى الهاوية .والنّمل يلاحقني.

وصل إلهي إلى القمّة قبلي دون أن يسبقني ،بطرقٍ ملتوية.. و أنا دفشته.

لن يحاكمني لأنّ محاكمته مؤجّلة فلا تحاكموني.

(7)

قرأ رجال الأمن رسالة مجيد المتروكة على هاتفه بصوتٍ عالٍ على مسمع منّا جميعاً.

قرب المنزل ، إلى جانب الإسطبل، حيث غرفة مجيد.

- قلتُ لكم!! ابني ماااات ورسالة وداعه هي الدليل : صرخت أمّ مجيد بهم و هي تنتحب بحرقة.

أجابها رجل يرتدي زيًّا مدنيًّا، قاسي الملامح.

يبدو أنّه يعمل في المخابرات مع رجال الأمن:

لدينا معلومات أكيدة أنّ المدعو مجيد الملقّب بالمثروك، البالغ من العمر تسعين سنة، هو رئيس عصابة لترويج المخدرات. و هو حيّ يرزق. رأيته البارحة يركض باتجاه أعلى الجبل وقد كان يتلفّت حوله كمن يخفي شيئاً.

صرتُ أنبح عالياً حول حوض المياه لافتاً نظرهم إلى لون المياه الأحمر و الحمارة تلبط بجنون كمن يشعر أنّ هناك خطباً ما.

اقترب الرجل المدني منّي متفحّصاً المياه ، نظر إلي نظرة مشمئزة و قال: هذا دم دجاجة يا غبي.

انتشل بعدها من قاع الحوض جثة صديقي الديك وقد كان بلا رأس كأنه ذبح بوحشية ورمي هنا على عجل.

- هيا فتّشوا المكان ، لدينا إذن تفتيش!

قال أحد رجال الأمن مخاطباً أمّ مجيد و أنا وبعض الحمام الزاجل الّذي كان يشرب من ماء الحوض بلا مبالاة.

دخلوا إلى الغرفة بالعشرات كمن يفتّش عن شخصيّة مهمّة.

"كنتَ ستفرح يا مجيد لو رأيت أخيراً مدى الإهتمام بك" فكّرتُ في سرّي.

أمّ مجيد تمزّق ثيابها السوداء و تولول و تصرخ بهم : ابني ليس مجرما ،ابني ليس مجرماً . هو فقط مجنون، هو فقط مجنون.

لم يصلّ عليه أحد عند موته. هو وحيدٌ وبائس. إمام المصلّى لم يحضر الجنازة. اعتبروا ابني كافرًا.. أنا دفنته بيدي..

إنّه تحت التراب، هناك!!

(أشارت بيدها إلى قمّة الجبل المقابل)

ونظرَت إليّ بترجٍّ كمن تتوسّلني أن أنطق و أؤكد لهم أن لا وجود لمجيد

خرج بعدها رجال الأمن و قوات الشرطة و رجال المخابرات من الغرفة بعد أن قلبوها رأساً على عقب . أحد الرجال رفع بيده ثمانية أمشاط دواء ، كل مشط به عشرة أقراصٍ مهلوسة حمراء نوع كاربيمول 400 ملغ.

لوّح بها عالياً و علامات الزهو تعلو وجهه الكريه:

ها هي!!!! وجدنا الدليل!! يجب استكمال الإجراءات القانونية اللازمة و إنجاز العقوبات الجزائية ضد هذا المجرم مجيد الذي يهدّد أمن الجزائر . يجب تقديمه إلى العدالة. وإعدامه في ساحة القرية كي يكون عبرة لغيره.

صفّق الرجال بحماس و سال لعابهم فخراً أنّهم عثروا على ما كانوا يبحثون عنه.

نهقت الحمارة هنا نهيقاً متتالياً و رفستني على ظهري المقوّس .

صرتُ تحت أرجل رئيس الأمن.

- ابني مات ابني مات و هذه الأقراص هي دواؤه . ابني فقد عقله هذه الليلة أثر نوبة صرع قوية .لم يأخذ دواءه:صرخت أم مجيد بين دموعها.

و هي جاثية على ركبتيها ناظرة إليهم نظرات رجاء.

تحرّك الرجال باتجاهها و صرخ أحدهم : لن نذهب من هنا إلّا و المجرم معنا...

سمعتُ بعدها تمتماتهم فيما بينهم بعد أن أخذوا شكل دائرة حولي. يؤنّبون الملازم الّذي قال أنّ المجانين لا حرج عليهم و ممنوع إدخالهم السجن.

هم معفون حسب قانون البلاد.

وإذ بطلقة تخرج من مسدّس رئيس المخابرات باتجاه رأس الملازم ترديه قتيلاً. يقع جسده الثقيل فوقي فلا أقوى على التنفس.

نظرات الرجاء تحوّلت إلى رعب في عيون أم مجيد ...

- خذوا المثروك بدلاً عن مجيد!! مشيرةً إليّ ، رافعةً السبابة في وجهي كمن يتوعدني إن نطقتُ بحرفٍ . إنّه كلب فداء ....إنّه كلب فداء ...

أكملَت بصوت يشبه صوت مجيد إلى حدّ كبير أو هكذا خيّل لي:

- كلّ من لا يؤمن بمعجزة الملاك العسكري فهو كافر خائن يجوز

تعريته من جزائريته وذبحه أمام العلم ليكون عبرة لباقي الوطنيين!!!

اقتادوني بعدها إلى ساحة القرية . ربطوا قوائمي الأربع على صليبٍ زجاجي في الوسط. بدأ أهالي القرية و رجال النار و أم مجيد والذئاب والخراف برجمي بكل أنواع و أشكال الحجارة.

رموا على عينيّ و فمي التراب.

لم أبك. فالكلاب لا تبكي . و البؤساء لا تموت مرتين . وأنا امتداد لكل منكوحي العالم.

ننام الاثنان هكذا، ما تبقّى من اللّيل. أستفيق عدة مرات في ذعر. أسمع أصواتًا غريبة وصفيرًا حادًّا يطنُّ في أذني. أرى كوابيس والكثير من الظلام.

هل الكلاب المذمومة تحلم! هل من لا ذاكرة ولا ماض له يحلم. مرة حلمتُ أنّ الكلبة التي أحببتها، اغتصبها رجل يشبه عبجي وجلال وعمار، ربما مجيد. الكثير من الّذين يشبهون مجيد. قامت هي بالالتصاق به مستمتعةً كما تفعل الكلبات ورفضَتْ أن تطلقه. فعلق قضيبه داخلها. نقلوها إلى المستشفى فلم يستطيعوا استئصالها إلّا بعملية قيصرية.

ثم حلمتُ برجل اغتصب تمساحًا كبيرًا وعندما سألوه ما السبب قال: هذا التمساح يظنّ أنّه أقوى مني.

ثم حلمتُ أنّي عضضتُ مجموعة الذئاب الّتي هاجمتني واحدًا تلو الآخر. وزأرتُ فيها عاليًا. فهربَت بعيدًا جدًا، وصفّق لي الخراف والتيس الأسود وأبو مجيد ومجيد وعبجي وجلال وعمّار. صفّق لي الجميع.

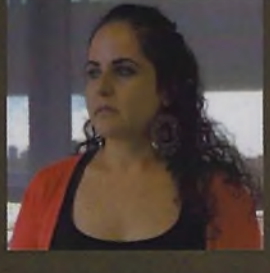

نسرين النقوزي؛ روائية ومدونة أدب ساخر، من مواليد صيدا، لبنان، درست صحافة وإعلام في الجامعة اللبنانية، ولغة إنجليزية في جامعة كيبيك بمونتريال/ كندا. مدرّسة لغة عربية ومدرّسة لغير الناطقين بالعربية، تدرس الكتابة الإبداعية ومادة التفكير النقدي منذ سنوات.

اللوحة اهداء التشكيلي العراقي سيروان باران عارف

Cover by: Hasan Jemy
9 789776 811157
AVERROES
أفروس